سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي

كتاب المنتدى

خواطر في الدعوة

تأليف / محمد العبدة

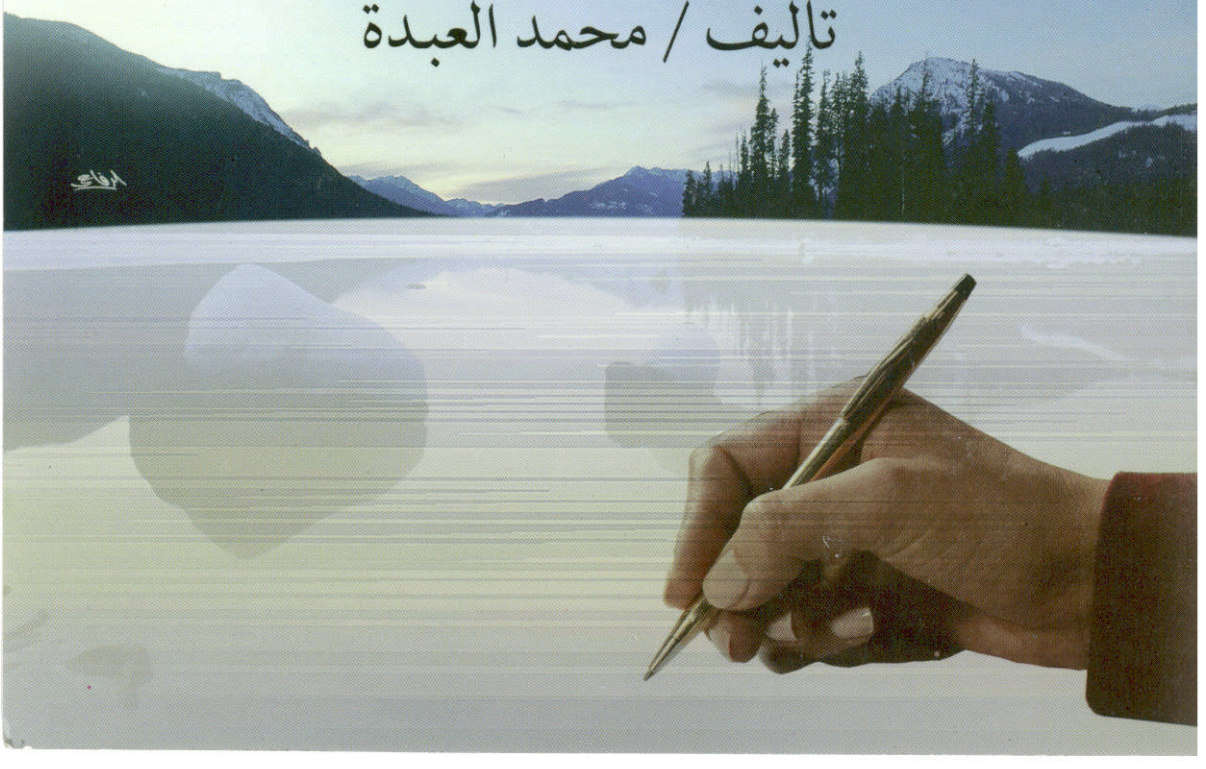

خواطر في الدعوة

تأليف

محمد العبدة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤١٨ هـ = ١٩٩٧م

خواطر في الدعوة

تأليف

محمد العبدة

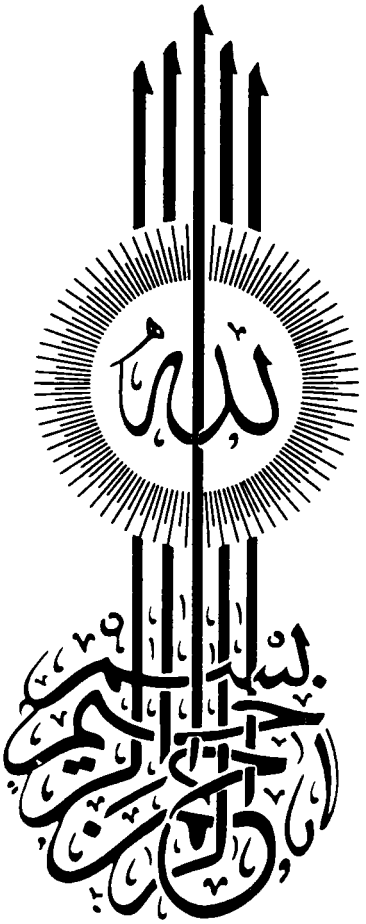
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه. وبعد:

فإن الدعوة إلى الله من خير أعمال المسلم التي يقوم فيها محتسباً طالباً للأجر من الله؛ فقد جاء في الحديث: «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النَّعَم».

والدعوة إلى الله من عمل الأنبياء والمرسلين ومَنِ اقتدى بهم من العلماء والمصلحين؛ فهي مهمة بالغة الشأن لا يعلم قدرها إلا من تعلق قلبه بها، وجعلها محور حياته، يفكر فيها ليل نهار، يبحث عن نافذة للأمل، أو مخرج من هذا الضيق.

وإذا كانت الدعوة مؤكدة في كل عصر، فهي في هذا العصر آكد لَمّا كثر الخبث، وابتعد الناس عن دين الله؛ وعلى من يقوم هذا المقام الخطير تحرِّي سلامة المنهج، واستقامة الطريق، وعليه أن يتأمل الماضي القريب، ويعيش المستقبل المأمول، ويرى سير الدعوة بين قوتها وضعفها، وبين مَدّها وجزرها وما طرأ عليها من جمود أو خلل، فيجدد في الأساليب والطرائق.

إن الفاصل الزمني بين هذه الخواطر وبداياتها الأولى ليس بالقصير، ولكن أحوال المسلمين ما زالت بين إقدام وإحجام، فالنهوض بطيء، والعوائق كثيرة، وطرق العلاج متشعبة مختلفة، وإن أمر الإحياء أوْ التجديد يحتاج إلى جهود أكبر بكثير مما قُدر لها.

جاءت هذه الخواطر لتتحدث عن بعض هموم الصف الإسلامي في الداخل؛ لأنه كان وما يزال هو الأَوْلىٰ؛ فإذا كان البناء الداخلي متماسكاً قوياً، فسوف تتحطم على صخوره كل التحديات والضغوط.

ولقد كان الصحابة على علم بأهمية الجبهة الداخلية، كما جاء في البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «... وكان لي صاحب من الأنصار، إذا غبت (عن مجلس رسول الله ﷺ) أتاني بالخبر، فإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوَّف ملكاً من ملوك غسان ذُكر أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه؛ فإذا بصاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه، فقلت: رغم أنف حفصة وعائشة...»[1].

فالأنصاري يعتبر أن مشكلةً تحدُثُ في بيوت رسول الله ﷺ أهمُّ وأخطرُ من غزو الغساسنة للمدينة؛ وما فعله زعيم المنافقين عبد الله بن أبي في قصة الإفك إنما كان يريد به تحطيم الجبهة الداخلية وتفكيك البناء المتلاحم بين القائد وجنوده.

وإني آمل أن تكون هذه الخواطر قد أفادت، وتفيد في سد بعض النقص، أو في التنبيه إلى أمر مهم من أمور العمل الإسلامي، والله ناصرٌ دعوتَه، ومتمٌّ نورَه، وهو حسبنا، ونعم الوكيل.

المؤلف

---

(١) فتح الباري (٨/٦٥٧). والحديث في البخاري في كتاب التفسير.

فقه الشافعي

في حوار جرى بين الإمام الشافعي، والإمام محمد بن الحسن الشيباني:

قال الشافعي: ناشدتك الله، صاحبُنا (مالك بن أنس) أعلمُ بكتاب الله، أم صاحبكم (أبو حنيفة)؟

قال: بل صاحبكم.

قال الشافعي: بل صاحبكم أعلم بسنة رسول الله أم صاحبكم؟

قال: بل صاحبكم.

قال الشافعي: ما بقي بيننا وبينكم إلا القياس. ونحن نقول بالقياس، ولكن من كان بالأصول أعلم كان قياسه أصح[1].

والذي نريد أن نخلُص إليه من هذا الحوار بين هذين العالمين الجليلين، أن الشافعي - رضي الله عنه - رتب الأمور ترتيباً صحيحاً: كتاب الله، ثم سنة رسول الله ﷺ، ثم أقوال الصحابة، وهذا الترتيب الدقيق يغفل عنه كثير من المسلمين في هذه الأيام، بل ربما عكسوا الآية، فيضطرب الأمر عليهم وتضيع الموازين الحقيقية مع أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله، ﷺ، قال: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا**» فقدم، ﷺ، العالم بالقرآن على العالم بالسنة، وقدم العلم على العمل.

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى ٢٠ / ٣٢٨.

روى الزهري، عن عروة؛ أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أراد أن يكتب السنن، ثم تردد، ثم قال: كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله ـ تعالى ـ وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً»(١).

أراد عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يحدد الأولويات، وكأنه كان يخشى أن يُهجر القرآن ويَضعف العلم به، ويكبَّ الناس على الشروح والحواشي؛ لتصبح هي المصدر لفهم الإسلام دون القرآن، كما أن الذين أسلموا حديثاً في الشام والعراق لا تُقدم لهم كل العلوم الإسلامية دفعة واحدة، بل لا بد من تربيتهم تربية متأنية: تبدأ بالأصول، ثم تتدرج بهم إلى الفروع والتفصيلات.

وهذا المعنى يؤكده ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بقوله: «**إنما أهلك أهل الكتابَيْن قبلكم؛ أنهم أقبلوا على كتب علمائهم، وأساقفتهم، وتركوا كتاب ربهم**».

إن عدم ملاحظة هذا الفقه الدقيق، يجعل المسلمين لا يفرقون بين المهم والأهم، بين الواجب والضروري، بل ربما قدم بعضهم الكمالي على الضروري، وبذلك يكونون كمن يضع العربة أمام الحصان!

* * *

(١) جامع بيان العلم، ١/ ٦٤.

هذه الشريعة عربية

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]

معاذ الله أن نكتب من زاوية قومية، أو نتحدث بلوثة قومية، ولكن الحقيقة التي قد تغيب عن بعض الأذهان هي أن هذا الدين لا يُفهم حق الفهم، ولا تُستوعب مراميه القريبة والبعيدة، ولا يُحاط بقواعده الكلية وتفصيلاته الجزئية إلا عن طريق اللغة العربية، فبها نزل القرآن الكريم، وبها بلّغ البشير النذير محمد، ﷺ، وبها كُتِبَتْ أصول الإسلام في العقيدة والفقه والحديث والتفسير.. وهي من الاتساع والشمول والدقة، بحيث استوعبت مضامين الشريعة كلها، وتستطيع استيعاب العلوم النافعة في أي عصر، وهي من أنقى اللغات عن الدخيل، والهجين، وأفضلها تعبيراً عما يستكن في الضمير والشعور.

ولا سبيل إلى فهم هذا الدين من غير هذه الجهة؛ لأن اللغة العربية، وإن اشتركت مع اللغات الأخرى في أمور عامة، إلا أن لها أوضاعاً تختص بها، ليس هنا المجال لتفصيلها، ولأنه مهما كانت الترجمة إلى اللغات الأخرى صحيحة ودقيقة؛ فلن تفي بالغرض؛ ولن تؤدي المطلوب، هذا إذا كانت هذه اللغات فيها من الحيوية والاتساع ما يساعدها على استيعاب كثير من الأمور، فكيف إذا ترجم إلى لغات محلّية ضيِّقة، هي مزيج من لغات شتى ليس بينها أي ترابط؟!

والذي يرى في هذه الأيام ما تؤدي إليه الترجمة من أخطاء وأخطار في فكر الذين يُسلِمون من أهل الغرب أو الشرق، تتضح له صورة الماضي عندما دخل الأعاجم في الإسلام ولكنهم لم يتقنوا العربية، أو بقيت هي لغة العلم والثقافة، وتمسّكوا بلغاتهم المحلية، ثم انتقل بهم الأمر فرجعوا إلى لغاتهم السابقة ونسوا

العربية، وجاءت نغمة الشعوبية القومية، وبدأ التفاخر بالفردوسي والشيرازي اللذين كتبا الشعر بالفارسية.

بل نستطيع القول: إنه لا يكفي في فهم الإسلام تعلّم العربية في كتب النحو، بل لا بد من معرفة معهود العرب يوم أنزل القرآن من هذا اللفظ أو من ذاك، حتى لا نحمّل اللفظ أكثر مما يحتمل؛ فإذا كانت الكلمات لا تزال هي هي في تركيبها، إلا أن بعضاً منها غُيِّر مضمونه بسبب البعد عن الفصاحة، ولذلك فإن كثيراً من الانحرافات في فهم الإسلام إنما جاءت من العُجْمة، والذي يتتبع تاريخ التفرق سيرى مصداق ذلك.

نقول هذا، ونحن نعلم الصعوبات التي تعترض انتشار العربية بين صفوف المسلمين من غير العرب، ولكن أليس حَرِيًّا بالدعاة، وطلبة العلم، والعلماء منهم، أن يتكلّموا بالعربية، ويقرؤوا تراثهم بالعربية؟! وهم يعلمون أن اعتياد التكلُّم بغير العربية في قطر من الأقطار أو بلد من البلدان أمر كرهه العلماء؛ ذلك لأن العربية هي شعار الإسلام ولغة القرآن، وتعلُّمها من الدين، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

* * *

بين القوة والضعف

من السهولة على كثير من الناس معرفة الخير والشر، فإن الفرق بينهما واضح لكل ذي فطرة سليمة، بل اتِّباع الخير أيسر على النفس من تعمُّد الشر، ولكن معرفة خير الخيرين واتباع أعلاهما، ومعرفة شر الشرين والسكوت أو الاضطرار لفعل أدناهما دفعاً لأعلاهما، فهذا هو الفقه الدقيق الذي يحتاجه المسلم، خاصة إذا كثر الدَّخَن، واضطربت المفاهيم، وكثرت الاجتهادات دون علم ينير الطريق ويوضح المحجّة.

والمسلم مضطر للعيش في هذه الأجواء، التي يختلط فيها الحق والباطل، ويكثر فيها الشر مع وجود الخير، فكيف يكون منسجماً مع نفسه ومع مبادئه التي يحملها ولا يقع في التناقض والحيرة، ويصبح ممزق الشخصية بين الواقع والمثال؟

هنا يظهر مصداق حديث رسول الله ﷺ: «**من يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقهه في الدين**» **فالفقيه حقًّا**: هو من يجنب نفسه والمسلمين الالتفاف حول النصوص والأخذ بالرخص الملفقة، كما يجنب نفسه والمسلمين العنت والحرج المتعارض مع الحنيفية السمحاء.

إن سهولة انتشار كتب العلم في هذا العصر، جعل بعض الناس يقرأ الكتاب والكتابين، ثم يستنبط ويستخرج الأحكام؛ من غير أن يكون على دراية تامّة، ومعرفة بأسرار الشريعة وحكمتها في التدرج بالناس، ومراعاة المصالح، ومعرفة أسباب اختلاف العلماء، ومن غير أن ينظر بعين البصيرة إلى تطور مراحل الدعوة والدولة، وكيف كانت تتنزل الأحكام.

والذي يطالب المسلمين بتطبيق تفاصيل الشريعة، كالتميّز عن الكفار في كل

شيء أو تطبيق ما جاء في سورة براءة من قتال المشركين كافة، والمسلمون في حالة ضعف، فهذا لم يفقه الإسلام الفقه الصحيح.

ومن الأدلة على أن بعض الأحكام تختلف بين حال القوة والضعف:

أولاً: ما جاء في قصة صبيغ بن عسل، أنه كان يسأل عن تفسير ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا...**﴾ [الذاريات: ١، ٢]. يفتش بذلك عن المعضلات ويتتبع المتشابه، وسمع به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فدعا الله أن يمكنه منه، فلما حضر بين يديه وتأكد له أنه يسأل عن هذه الأشياء أَمَرَهُ بوضع عمامته فإذا له وفرة، فقال له: « **لو رأيتك محلوقاً لضربت عنقك** ».

لقد خشي عمر أن يكون هذا الرجل من الخوارج الذين وردت الأحاديث بذمهم، – وكان من علاماتهم التحليق – وكان عمر سيقتله لو تأكد له أنه من هذه الفئة، مع أن الرسول، ﷺ، لم يقتلْ ذا الخويصرة التميمي؛ عندما انتقد قسمته لغنائم حنين، وقال له: « **إنك لم تعدل** » فقال، ﷺ: « **ويحك من يعدل إذا أنا لم أعدل** » فَيُعلم أن العفو عن الخوارج كان في حالة الضعف والاستئلاف(١).

ثانياً: إن الحال التي أخبر الله ـ سبحانه ـ أن المسلمين يسمعون أذىً من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، نسخت عند بعض العلماء بحال القوة والأمر بقتالهم، وبعض الناس يقول: الأمر بالصفح باق عند الحاجة إليه لضعف المسلم عن القتال، ولا خلاف أن النبي، ﷺ، كان مفروضاً عليه لما قوي أن يترك ما كان يعامل به أهل الكتاب والمشركين ومظهري النفاق: من العفو، والصفح؛ إلى قتالهم، وإقامة الحدود عليهم سواء سمي هذا نسخاً أو لم يُسَمَّ(٢).

---

(١) انظر ما كتبه ابن تيمية حول هذا الموضوع في « الصارم المسلول » ص ١٨٩.
(٢) المصدر السابق.

ثالثاً: احتمل الرسول، ﷺ، من المنافقين أذاهم قبل نزول براءة ما لَم يحتمله بعدها، واحتمل من أذى الكفار، وهو بمكة، ما لم يكن يحتمل بدار الهجرة والنصرة(١).

رابعاً: إن الآيات مثل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

إن هذه الآيات لا دليل على نسخها بالآيات التي تدعو إلى قتال المشركين والغلظة عليهم، وأمثال ذلك مما وردت به السنة النبوّية، ولا يقول بالنسخ إلا من يتوهم التعارض في ذلك، ممن خفي عليه حسن اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين، ولذلك أنزل الله الكتاب والحديث وكان رسول الله ﷺ نبي الرحمة والملحمة(٢).

ولا يظن ظان أن اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين، هو تغيير لأحكام الله أو انحراف بها عما وضعت له، فالأحكام الثابتة المفروضة لا تتغير إلى يوم القيامة، ويبقى هناك أمور يراعى فيها حال المسلمين من الضعف أو القوة في كل عصر، ولا يعقلها إلا العالمون.

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) محمد بن إبراهيم الوزير: العواصم والقواصم ١ / ١٧٢.

قرار صائب ثم يأتي النصر

لا نكون مغالين أو مجرِّحين إذا قلنا: إن المسلمين في الأعصر الأخيرة يفتقدون القرار الصائب والحاسم في اللحظات الحرجة أو اللحظات التاريخية. القرار الذي يُتَّخَذُ دون تردُّد أو خوف من النقد ولوم الشباب أو الشيوخ، ودون إرضاء لطرف على آخر. وهو القرار المناسب وليس القرار التلفيقي الذي يُظَنُّ أنه يُرضي الجميع وهو في الحقيقة لا يرضي أحداً، وقبل هذا كلّه لا بد أن يحسب حساب الشورى وتقليب وجهات النظر، وملاحظة واقع المسلمين والمصلحة الشرعية وما يراه العلماء في القديم والحديث، عند ذلك يأتي الفرج بعد الشدة، ويفرح المؤمنون بنصر الله؛ وفي القرآن والسنة وواقع المسلمين أمثلة لذلك:

المثال الأول:

جاء في سورة البقرة أن بني إسرائيل، وفي يقظة من يقظات الإيمان قالوا لنبي لهم: ﴿**ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٤٦]. وأراد هذا النبي التأكد من صدق عزيمتهم؛ ربما لأنه يعلم ما هم عليه من الخَوَر والتردّد ﴿**قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا**﴾ [البقرة: ٢٤٦] فأظهروا تصميمهم على القتال. فاستجاب الله لنبيه، وبعث لهم طالوت ملكاً يقودهم لقتال أعدائهم.

وقد ذكر لنا القرآن عن هذا القائد الحكيم أنه لم يستخفَّه حماس هذا الشعب، فراح يختبرهم المرة تلو المرة، ولم يصمد معه أخيراً إلا فئة قليلة، واتخذ القرار الصعب، وقاتل بهذه الفئة، وجاء النصر ﴿**وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

المثال الثاني:

بعد تكالب الأحزاب على المسلمين في غزوة الخندق رأى رسول الله ﷺ أن يخفف عن المسلمين هذا الضيق رحمة ورأفة بهم، فاستدعى زعماء البدو من غطفان وغيرها، وطلب منهم الرجوع عن المدينة وترك حصارها ويعطيهم ثلث ثمارها، وقبل تنفيذ هذا الرأي استشار السَعْدَيْن: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: «يا رسول الله! أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم؛ لأن العرب رمتكم عن قوس واحدة**». فقال له سعد ابن معاذ: «يا رسول الله! قد كنا وهؤلاء على الشرك وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرىً أو بيعاً، أحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! واللهِ لا نعطيهم إلا السيف». فقال النبي ﷺ: «**أنت وذاك**». وكان وفد غطفان يسمع هذا الكلام فتزلزلت أركانه، ورجعوا إلى معسكرهم ثم جاء النصر ريحاً وجنوداً لم يروها، وانهزم الأحزاب خائبين.

المثال الثالث:

كان رسول الله، ﷺ، قد أعدّ جيشاً بقيادة أسامة بن زيد، ووِجْهَتُه شمالي الجزيرة والروم، ولكن الجيش لم يمضِ بعد سماع أنباء مرض رسول الله، ﷺ، وتوفي رسول الله ﷺ، واستُخلف أبو بكر رضي الله عنه، ورأى الصحابة إرجاع جيش أسامة بعد أن ارتدت العرب، ولكن أبا بكر قال كلمته الحاسمة الجازمة: «لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ، وأنفذ جيش أسامة؛ فقالت العرب: «لو لم يكن بهم قوة وطاقة لقتال الروم لما أرسلوا له هذا الجيش». وأصابهم الوهن والرعب بسبب ذلك، وجاء النصر من عند الله على يد قامع المرتدين خالد بن الوليد، رضي الله عنه.

المثال الرابع:

عندما بلغت المدن الأندلسية في منتصف القرن الخامس الهجري الغاية من الضعف والتفرّق، واستعان بعض ملوكهم بالنصارى على بعض، اجتمع علماء إشبيلية وقرروا أنه لا بد من الاستعانة بالمسلمين في المغرب، وكانت الدولة للمرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين، وعلم ملك إشبيلية المعتمد بن عباد بذلك فوافق على هذا الرأي، ولكن بعض الناس حذروه مخوفين له من أن ابن تاشفين إذا جاء لمساعدته فسيأخذ الأندلس أيضاً، ولكن ابن عباد اتخذ القرارَ الصعبَ، وقال قولته المشهورة: «**لأَنْ أكونَ راعي إبل خير لي من أن أكون راعي خنازير**».

ويقصد ابن عباد أنه يفضّل أن يرعى الإبل عند ابن تاشفين ولا يُؤْسَرَ عند ملك النصارى، فقدّم مصلحة المسلمين وبلاد المسلمين على مصالحه الشخصية، وجاء ابن تاشفين، وكانت معركة «**الزلاّقة**» مع نصارى أسبانيا وانتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً، وتملّك ابن تاشفين الأندلس فعلاً، وأُقصِيَ ابن عباد رحمه الله وعاش بعيداً عن إشبيلية، ولكن مأثرته هذه لا تُنسىٰ.

* * *

بين الدفاع والأصالة

لا يزال بين المسلمين اليوم من يعيش بعقلية الأربعينات والخمسينات، حين كانت الهجمة على الإسلام والمسلمين على أشدها، وكان الذي يتولى كبرها المستشرقون والمبشرون والأحزاب العلمانية، وكان موقف كثير من المسلمين هو موقف المدافع عن نفسه دفاع المتّهم الذي بداخله شيء من الانهزامية، أو عنده عقدة نقص تجاه كل ما يأتي من الغرب أو الشرق، أو من الأحزاب التي تسمي نفسها «تقدّمية».

يومها قالوا عن الإسلام: إنه استبدادي النزعة، فرد عليهم البعض بأنه «ديمقراطي» فيه كل مبادئ الديموقراطية، وقالوا: إن بلاد الإسلام فتحت بالسيف والقوة، وإن المسلمين كانوا أصحاب ولوغ في الدماء، فقيل لهم: لا.. إننا لا نهاجم أحداً ولا نفتح البلدان، بل ندافع عن أنفسنا فقط إذا ما هوجمنا من الخارج، وها هي بلاد أندونيسيا وماليزيا، ودول وسط أفريقيا قد دخلها الإسلام بواسطة التجارة أو الدعاة.

وقيل عن تعدّد الزوجات والطلاق ومشاكل المرأة الكثير الكثير.. وكُتِبَت المجلدات، وحررت المقالات في الرد على هذه الاتهامات، ولكن بمنطق المنهزم أمام هذا الهجوم الماكر، وكان الرد أن التعدّد فقط للضرورة، وأن الإسلام أعطى كل شيء للمرأة وأنها نصف المجتمع.. إلخ. هذا الكلام الذي بعضه صحيح وبعضه خَطَل.

ولا يزال المسلمون ـ ممن يعيشون بيننا ـ إذا عرضوا الإسلام على الآخرين بعرضونه على استحياء. وقد يتكلم أحدهم عن تقارب الأديان إذا ما دخل في

مناقشة مع نصراني مثلاً، أو أن الإسلام لا يكره أو لا يحرم بعض الأشياء المكروهة أو المحرّمة فعلاً.. إذا ما دخل في جدال مع أصحاب الترخّص والتساهل.

هذا الموقف الضعيف، كنا نعتقد أنه انتهى أو يجب أن ينتهي ولا حاجة لإعادة الردود واجترار هذه الأشياء. لقد انتقل المسلمون إلى الشعور بالثقة وبالأصالة وبموقف المهاجم وليس المدافع، وقد كان للعلماء والدعاة في هذا العصر أثر في توليد هذه الثقة، ومن أبرزهم الداعية الشهيد سيد قطب رحمه الله.

وقد سمعت وقرأت أخيراً لبعض الإسلاميين في موضوع الأسرة والمرأة ما يعود بنا القهقرى إلى الوراء، وكأننا متهمون بظلمها، ومتهمون بأننا لا نعطيها الحرية التي يريدها أعداء الإسلام فيتقدم طيبو القلب ليعطوها أكثر مما جبلت عليه وخلقت له، ونحن ليس عندنا مشكلة اسمها مشكلة المرأة، فالله - سبحانه - خلق الخلق لعبادته، وكل ميسر لما خلق له، وكلٌّ له مهمة في هذه الحياة، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه، أما معاكسة الفطرة التي خلق الله الخلق عليها فسيكون من بعدها الدمار.

أما الموضع الآخر الذي يخجلون منه فهو الجهاد، وينسون أنه ذورة سنام الإسلام، وقد شرعه الله لنا وحضنا عليه، وهو من خصائص هذه الأمة، وهو جزء من الدعوة، وبالجهاد والفتح يتعرّف الناس على الإسلام عملياً ونظرياً. فهو رحمة وليس قسراً، وأكثر البلاد الإسلامية اليوم فتحت بالجهاد، فهل نخجل من شرع شرعه الله لنا، والناس يفتخرون بزبالة أفكار ماركس وأمثاله؟!

إن القرآن الكريم علمنا كيف نرد على الكفار اتهاماتهم، وكيف نهاجمهم بدل أن نضع أنفسنا في قفص الاتهام. قال - تعالى - رادّاً على قريش قولها: إن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقتلوا وأسروا - وقد وقع هذا في سرية عبد الله بن جحش عندما أرسله رسول الله ﷺ، في مهمة استطلاعية للتعرّف على أحوال مكة

وما حولها ـ قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ... ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية.

ومعنى الآية: إذا كان القتال في الشهر الحرام كبيراً فعلاً ولا يجوز فأنتم فعلتم أكبر من هذا، أخرجتم المسلمين من البلد الحرام، بل فعلتم ما هو أشنع وهو: الكفر بالله، والصدّ عن سبيله، وفتنة المؤمنين عن دينهم.

هذا هو أدب القرآن في مناقشة الخصوم، ولكن بعض الناس يحرفون النصوص الواضحة كي لا يغضب غير المسلمين، وحتى نظهر أننا في غاية التهذيب والرقة والمسكنة!!

سبحانك هذا بهتان عظيم!!

* * *

خطأ الواحد.. وصواب الجماعة

« خطأ الواحد في تدبير الأمور، خير من صواب الجماعة التي لا يجمعها واحد؛ لأن الواحد في ذلك يستدرك، وصواب الجماعة يضرّي على استدامة الإهمال، وفي ذلك الهلاك ».

هذا الكلام النفيس للإمام ابن حزم الأندلسي، ذكّرني ببعض أحداث تاريخنا الإسلامي، لأرى مصداق ما ذكره: فئة معها الحق، أو هي أقرب إلى الحق، ومعها كل مقومات النجاح سواء في القيادة أو التضحية، والحماس والثقة بالنفس وبالحق الذي هي عليه، ومع ذلك فقد أخفقت، فمن أي جاء الخلل؟

لم يكن قائد هذه الفئة يطلب الطاعة العمياء من رعيته، ولكن بعضهم لا يستحق هذا التكريم، فتمادوا في إساءة استعمال هذه الحرية المتاحة لهم، وأصبحوا كلّهم فقهاء وساسة وقادة، فلم يرضوا برأي قائدهم في أول الأمر، ولا في آخره، جاء الخطأ من حيث يجب أن يكون هو الصواب – وأعني احترام الآخرين وإعطاءهم حرّية الشورى والكلام – ولكنهم استخدموا هذا الحق في غير محلّه، بل إن بعضهم لا يستأهل هذا الحق.

إن شبكة الترابط والالتفاف حول القيادة في صف كهذا تكون ضعيفة؛ ولذلك يخسر الذي معه الحق، فهل نستفيد من هذه التجربة أم يتكرر الخطأ؟ ولا يقوى المسلمون ولا يتمكّنون؛ وذلك لاستدامة الإهمال كما عبر ابن حزم، هذا الإهمال يرجع إلى عدة عوامل:

العامل الأول: عدم المعرفة بشبكة العلاقات بين الناس.

العامل الثاني: تداخل الأمور الشخصية مع ما يتعلق بالمصلحة العامة، وما يترتب على ذلك من نظرات صائبة أو خاطئة؛ لأن هذا التداخل يكون طبيعيًّا أحياناً، وشاذّاً أحياناً أخرى.

والمجتمع المسلم – سواء كان صغيراً أو كبيراً – ليس هو مجتمع الأطهار الأبرار، الذي ليس فيه أي خطأ، أو ضعف بشري، أو تطلعات يختلط فيها الإخلاص التام ببعض الهوى، وليس هو بالطبع المجتمع المادي المتكالب على الدنيا وشهواتها؛ ولكنه المجتمع الذي يتطلع دائماً إلى الأفضل، إلى تطهير النفس من أدران الجاهلية، فالذي يحاسب الناس على أنهم يجب أن يكونوا ملائكة تمشي على الأرض سيخسر الجولة؛ لأنه لا يعلم كيف تكون العلاقات الاجتماعية.

العامل الثالث: هو الفوضى التي درج عليها البعض بسبب التكريم الذي أُعْطُوه، فظنوا أنهم فقهاء ساسة، ولأنهم تعوّدوا على الأوامر والخضوع، فإذا أريد منهم أن يرتفعوا عن هذا المستوى دبت الفوضى في أوصالهم، وظنوا أنهم لم يُكَرَّمُوا إلا لأنهم على مستوى عالٍ من التمرُّس بالدعوة.

بهذه العقليات، وبهذه النفسيات تتشتت الجهود، ولو كانت النوايا صادقة، ويشعر المسلم بالأسى كما شعر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عندما وصف أتباعه من أهل الكوفة الذين يدّعون محبته فقال:

«فيا عجباً من جِدِّ هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم، وددتُ أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم، وقبضني إلى رحمته من بينكم، والله لوددتُ أني لم أركم ولم أعرفكم معرفةً – واللهِ – جرّت ندماً، قد ورّيتم صدري غيظاً، وجرعتموني الموت أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان»[1].

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢ / ٥٤.

ثم يأتي سبع عجاف..

عندما يتاح للدعوة أن تنشط وتعبِّر عن نفسها، وتنطلق في صفوف الناس لتنقذهم من الظلمات إلى النور، وتنقلهم من الجهل إلى العلم، وتأخذ بأيديهم إلى الحياة الكريمة، عندما يتاح لها ذلك، لماذا لا يستطيع أصحابها استثمار هذا الرخاء كما فعل نبيُّ الله يوسف، عليه السلام، عندما علم أنه سيأتي بعد الرخاء سبع عجاف؟! فأخذ للأمر أهبته واستعد له استعداد الحازم البصير. ولم يموِّه على نفسه وعلى الناس، ويطمئنهم بأن الأمور تسير إلى الأحسن، بل صارحهم وبيّن لهم.

ونحن نعلم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلي المؤمنين بسنوات عجاف ليخرجوا من المحنة أكثر مضاء وصفاء، وأكثر خبرة ودراية، فيستغلوا كل ظرف ومناسبة للسير بالدعوة خطوة أو خطوات إلى الأمام، ونحن نعلم ما يخطط له الأعداء من مكر الليل والنهار، وما يفعله الذين لا يكفّون عن البطش والقهر وكأنهم الوحش الذي ولغ في الدماء فهو يتلذذ بها، فإذا أبعد الله هؤلاء وأراح منهم العباد والبلاد، فليهتبل المسلمون الفرصة وليضاعفوا من نشاطهم ويرسِّخوا أقدامهم.

لقد أتيحت للمسلمين فرصة في صلح الحديبية فاستغلها الرسول ﷺ أحسن استغلال، ووافق على الشروط التي ظاهرُها لمصلحة قريش، وتمكّن المسلمون بعدها من نشر الدعوة والتجوال بين القبائل لا يردهم أحد، وفي فترة قصيرة تضاعف عدد المسلمين، فالذين حضروا الحديبية كانوا ألفاً وأربعمائة، والذين حضروا فتح مكة بعد سنتين كانوا عشرة آلاف، وهذا الصلح هو الفتح المقصود بالآية: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح: ١] فهو فتح بالفرصة التي أتيحت للدعوة، فأقبل الناس على دين الله أفواجاً.

إن عرض الإسلام في جو من هدوء الأعصاب وحرية الحوار، بالحجة والكلمة الطيبة سيكون له أبلغ الأثر في صفوف الآخرين؛ ذلك أن الحق له قوة ذاتية يظهر بها على الباطل، فإذا أُحْسِنَ العرض واخْتِير الوقت المناسب، وكان الداعية عالماً بما يدعو له، فطناً أريباً قد فقه مقاصد الإسلام ومراميه، جاءت النتائج طيبة بإذن الله.

أما تضييع الفرص بسبب حُسْنِ ظننا الذي لا حدود له، وأنه لن يأتي ما يزعجنا ويعكر صفو راحتنا، وأن الأمور تسير كما نريد، فليس وراء هذا إلا العجز والندم. وقد تستغل الفرصة بأعمال ضعيفة ليس لها أثر يذكر، وتمضي الأيام والسنون دون القيام بعمل ترتاح له نفس المسلم ويبني عليه ما بعده، ولا يحتاج كل جيل للبدء من جديد والرجوع إلى نقطة الصفر، ومتى يُشْفَى صدر المؤمن إذا كانت كل الجهود والطاقات تذهب للتكديس لا للبناء؟!

* * *

التخصص.. أو التشتت

بالغ الغربيون في التخصص، وأعجبهم ذلك لما لمسوه من الفوائد في أول الأمر، فتجد العامل أو الموظف أو المدرس لا يعلم إلا في حيز ما أسند إليه، فإذا خرج عن هذه الدائرة فهو لا يفقه شيئاً، وهذه ناحية إيجابية في الأصل؛ لأنها تنتج المهارة، وتعطي النتائج السريعة.

ولكن شدة التخصص أدت في النهاية إلى: ضيق الأفق، وضعف المدارك في بقية شؤون الحياة. والمبالغة تؤدي إلى نقيضها أحياناً، فشدة البياض تصبح مهاقاً، ويقابل هذا التخصص عند الغربيين ما عند المسلمين من ميل نحو الموسوعية الفضفاضة في العلم، وحشر أنفسهم في شتى المجالات في العمل.

فالفرد هنا مطالب بأن يعلم كل شيء، أو تكون لديه خبرة في كل شيء، أو هكذا يدعي، ولا يزال يعجبهم القول القديم: فلان «بحر عالم» أو «دائرة معارف» ونسوا أو لم ينتبهوا إلى أن هذا العصر لا يحتمل مثل هذا، وإذا كان في العصور السابقة من هو فعلاً «بحر علم» فإن هذا لا يصح اليوم، بل لن يتهيأ له وإن أراده، لتشعّب الأمور وتعقّدها، مما لا يتيح صفاء للذهن وراحة للجسم.

وإذا كان هذا في العلم؛ فكذلك في الدعوة ومن يتصدى لها، فلن يتهيأ له أن يتقن كل شيء، وإذا حاول فإنما يأتي به على وهن وضعف، أو يأتي به فِجًّا لم ينضج بعد.

فإذا كان الداعية المسلم هو المواطن أو التاجر، وهو الكاتب والخطيب والمتحدّثِ، وهو الذي عليه أن يحل مشاكل الناس.. فهل يستطيع الإحاطة بكل هذا، وهل ينتج في دعوته، وإذا كان بعض الرجال يتحمّلون هذا كله، ويقومون به

فإن غيرهم لا يستطيع، وإذا كان البعض قد أوتي قدرة وتحملاً وصبراً، فأين تدريب من هو دونه على تحمل المسؤولية، وتنمية مواهبه في فن من فنون العمل؟

وقد رأينا من أساتذتنا من يقوم بهذا، ولكن كثرة الأعمال تثقل عليه في النهاية وتجعله لا يستطيع أن يقوم بجزء منها، ونكون قد خسرناه مرتين:

* مرة: لأننا لم نستفد من اختصاصه.

* والثانية: أننا لم نستفد من فترة اكتمال تجربته ونضوج عقله.

ونحن هنا لا نريد ان نقلل من أهمية المعلومات العامة، وتوسيع المدارك، ولا من قدرات بعض الناس، وإنما نريد أن نكون واقعيين نعرف روح العصر وما يتطلبه، ونعلم كيف تتطور الأحداث، وكيف نستفيد من التيسيرات المادية الحديثة التي توفّر الجهد، وتساعد على التغلب على ما فقد من صفاء الذهن، كما نريد أن يتعمق أهل الاختصاص في اختصاصهم دون أن يفقدوا ميزة سعة الأفق، كي نستثمر جهودهم ولا نشغلهم بأمور شتى، فتضيع الجهود أو لا ينتجون إلا قليلاً.

* * *

المسلم وأغلال البيئة

إن مما تتطلع إليه همة المسلم، ويراه من أوجب الواجبات: العودة إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله، وتطبيقه في حياتهم تطبيقاً عمليًّا. والمسلم عندما يريد ذلك لا بد أن يرتفع بالناس إلى مستوى الإسلام، ولا بد لمن يقوم بمثل هذه المهمة العظيمة أن ينتزع نفسه من الآثار السلبية للبيئة المحيطة به حتى يستطيع انتشال الناس مما هم عليه من الهوى واتباع العادات والمألوف، وحب الدنيا والانغماس فيها.

ولكن كيف يقوم بهذه المهمة إذا كان مكبلاً بالواقع غارقاً فيه؟!!

إننا ـ في الحقيقة ـ نحمل في عقلياتنا وتصرّفاتنا آثار البيئة التي عشنا فيها، بسلبياتها وإيجابياتها، بيئة المنزل والمدرسة، بيئة الشارع والمجتمع، بل وبيئة النظم السياسية والاقتصادية التي حولنا، وهذا من الأمراض الخفية التي لا يُنتبه لها؛ لأننا لم نتعود النظر في مشكلاتنا بعمق وتبصّر، للابتعاد عن مواطن الضعف والخلل، أو على الأقل النظر بين كل مرحلة وأخرى لمعرفة السلبيات التي تعوقنا.

قد يكون المجتمع الذي يعيش فيه المسلم مجتمعاً تعوَّد على الإسراف في إنفاق المال، دون حساب أو تخطيط أو تدبير، ولا يستفاد من هذا المال بتوظيفه في طرق الخير التي تنفع الفرد والجماعة، ويتأثر المسلم بهذه البيئة فينفق أحياناً على الكماليات أو المأكل والملبس والمسكن ما لا يليق بالمسلم الداعية في مثل هذه الظروف الصعبة، ولهذا فهو لا يوفر جزءاً من دخله ليستثمره في وجوه الخير، ومع ذلك فهو يظن أنه لم يقدم على خطأ؛ لأنه لا يعرف قيمة المال وأهميته في حياة الأمم وتقدمها، بل ربما ظن أن الكلام في التدبير والاقتصاد هو من قبيل الكلام في «الماديات» التي يترفع عنها، ويجب ألاَّ يخوض فيها؛ لأنه مشغول بأمور أهم من المال!

ولقد نزل القرآن الكريم والعرب يتفاخرون بالكرم حتى وصلوا به إلى حد الإسراف، فأرجعهم الله ـ سبحانه، وتعالى ـ إلى حد الاعتدال، فقال: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

والحقيقة أنه ربّاهم تربية حضارية، وعلمهم أن المال هو من بعض مقومات الدول والحضارات، وإلا فهو التفاخر الفردي، وإن كان في الأصل هو خلق كريم.

وقد يعيش المسلم في بيئة اجتماعية مُعَيَّنة، بيئةِ الرِّيف والمدن، أو البدو والحضر، أو بيئة الفقر والغنى، فماذا نجد؟ نجد أن المسلم يتصرف أحياناً بسذاجة وسطحية في تقويمه للناس، أو يتصرف بخديعة ومكر، وهو يظن أن هذا من الذكاء و«الشطارة» وينسى قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «لستُ بالخِبِّ ولا والخِبُّ يخدعني» وكان الأوْلى أن يوجه مكره إلى أعداء الإسلام.

وقد يعيش المسلم في بيئة الإقليميات الضيقة التي ابتليت بها مجتمعاتنا في العصر الحديث، هذه الإقليميات النتنة التي لا تكتفي بأن يتعصب ويفخر أهل إقليم على إقليم آخر بل تصل إلى تعصب كل مدينة على أختها، وقد يقع المسلم في حبائل هذه الإقليمية دون أن يدري، فينظر للمسلمين الآخرين نظرة أهل بلده، وكل يظن أن الآخرين لا يفهمون الإسلام مثل فهمه، وأنهم مقصرون وهو الحقيق بأن يعيد مجد الإسلام، وقد يأتي بهذه النظرة على شكل المزاح والطرائف، ولكنك تشعر أنه في داخله يحمل هذا المرض.

والعجيب أن هذا المسلم يدعو إلى العالمية، وهو يعتقد فعلاً أن دعوته عالمية، وأن الإسلام لا يقبل هذا المنطلق الإقليمي ـ هذا مع أن الله قد بين أنه خلق الناس شعوباً وقبائل من أجل التعارف، لا من أجل التناكر والتناحر ـ وأن الإسلام جاء ليهدم هذه العصبية، وقد يقع المسلم في نوع من الجاهلية؛ ولكنه إذا ذُكِّر تذكر وآب إلى الحق، أو هكذا يجب أن يكون.

الفقه العملي عند الإمام مالك

كان الإمام مالك بن أنس يرسم منهج أهل السنة، ويعبّر تعبيراً صادقاً عن نظرتهم للأمور عندما قال قولته المشهورة: « **لا أحب علماً ليس تحته عمل** » وكأنه يردّ بذلك على منهج الجدل وتكديس المعلومات التي ليس لها من الواقع العملي نصيب، والذي بدأ يتغلغل في جسم المجتمع الإسلام يومها؛ ولذلك أجاب عمّن سأله عن هذا النوع من العلم: « **انظر ما ينفعك في ليلك ونهارك فاشتغل به** ».

لقد انغمس كثير من المسلمين بعد عصر مالك بالكلام الذي ليس تحته عمل، وأتعبوا أنفسهم، وأتعبوا غيرهم، بطرق وعرة لا تصل بالمسلم إلى اليقين والعلم النافع، ووقع المسلمون في فخ فلسفة اليونان التي تعتمد على المنطق الذهني البارد، فالفيلسوف هنا يرسم صوراً في ذهنه ولكن لا وجود لها في عالم الواقع، وأحياناً لا يمكن أن توجد. ولهذا ضعف العلم التجريبي عند المسلمين، وضعف الاهتمام بالمشكلات الواقعية كما كان يفعل أئمة الفقه أمثال مالك والشافعي، وانصب الاهتمام على مشكلات خيالية يفترض لحلها الافتراضات وهي لم توجد بعد، وظهرت المعتزلة وخاضوا بأدق التفاصيل التي ليس لها وجود، وهم الذين يحاول بعض الكُتّاب المعاصرين الرفعَ من شأنهم والإيحاء بأنهم يمثلون تيار العلم والنهضة.

هؤلاء لم يتكلموا ويتوسعوا في العلوم الطبيعية أو العلوم الرياضية التي تنفع المسلمين، وإنما شغلوا المسلمين بـ «الكلام» ونسوا هم وغيرهم أن الدنيا طريق الآخرة، ولا بد لهذا الطريق من أن يعمر ولكن عمران الوسيلة لا عمران الغاية؛ لأنه إذا أُصلحت حال الفرد مع فساد الدنيا حوله واختلال أمورها فلن يعدم أن يتعدى إليه فسادها وتؤثر عليه وتُخِلَّ بآخرته، وكيف يقوم بالعبادات على وجهها الصحيح والمشروع وكيف ينشر العلم ويجاهد في سبيل الله إذا كانت دنياه خربة، ثم يستعين

بالكفار في مأكله وملبسه ومسكنه وأسلحته؟! وكيف يحافظ على دينه والأعداء يتناوشونه من كل مكان؟!

وتابع علماء أهل السنة منهج الإمام مالك، ومن هؤلاء: الإمام الشاطبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية الذي دعا إلى المنهج التجريبي العملي، وأن حصول المعرفة يأتي من خلال استقراء الجزئيات.

وإنني أعتقد أنه لو سار المسلمون على هذا المنهج لتغير حالهم، ولما وصلوا إلى هذا الضعف المزري، ولما صرفوا كل طاقتهم في حفظ الحواشي والكلام البارد الذي سطَّره أمثال «سعد الدين التفتازاني» أو «العضد الإيجي» الذين حوَّلوا العقيدة الإسلامية إلى ألغازٍ وأحاجٍ.

يقول الدكتور النشّار: «إن ابن تيمية يؤمن بالجزئيات ويرى أن التجربة وحدها هي أقرب إلى الحقيقة مما ينتجه الفلاسفة بقياس، وليس هناك في الحقيقة من تكلّم ـ فيما قبل العصور الحديثة ـ بما تكلّم به ابن تيمية، لقد وصل حقاً إلى أوج الدرج في فلسفة المنهج التجريبي، وعبر عن روح الحضارة الإسلامية الحقة»[1].

وهذا الذي قاله ابن تيمية هو منهج أهل السنة لا كما يحاول بعض المعاصرين اعتبار كثير من علماء الكلام الذين تأثروا بمنهج المعتزلة في الجدل، من أهل السنة.

لقد تنبَّه الغربيون في العصر الحديث للأثر الخطير الذي يجره المنطق الأرسطي على طرق التفكير، وتكلّموا عن الفكر الذي وراءه عمل، أو من الممكن تطبيقه في دنيا الواقع وقالوا: إذا كانت لديك فكرة وأردت تحديداً لمضمونها فانظر ماذا عسى أن يكون لها من نتائج تطبيقية في دنيا العمل.

فهل يعي المسلمون كلام الإمام مالك، ولا يجرون وراء الهيام الأحمق بـ«الكلام»؟

---

(١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ٢٢١.

ولكن أصحابه لم يقوموا به!

يروى عن الإمام الشافعي أنه قال في «الليث بن سعد»: «**هو أفقه من مالك، ولكن أصحابه لم يقوموا به**» ومقصود الشافعي - رحمه الله - أن أصحاب مالك نشطوا في نشر فقهه وعلمه، وسُمع به في الآفاق، ولم ينشط تلامذة الإمام «الليث ابن سعد» لمثل ذلك.

ونحن إذا استبعدنا عامل الحسد والمنافسة من معاصري هذا الإمام، فقد يكون السبب في ذلك هو غفلتهم عن تقدير مكانة شيخهم، أو إهمالاً وضعفاً منهم في نشر آرائه العلمية. وقد يكون للحسد دور أحياناً في إهمال الرجال، وعدم الاستفادة منهم، ولكن يبقى مرض الإهمال والغفلة من الأمراض المستحكمة خاصة وإذا غلّف بغلاف من سوء الفهم للنصوص التي وردت بذم المدّاحين، ولا يذكرون النصوص الأخرى التي تشعر المسلمين وتنبّههم إلى أهمية بعض الصحابة، ومكانتهم العلمية أو القيادية حتى لا يقع الإهمال عن حسن نيّة.

إن ذكر أهل الحق، والإعلاء من شأنهم مما يساعد على إهمال أهل الباطل والغض من مكانتهم، حتى لا يُرفع لهم ذكر ولا يُقتدى بهم، وهذا مما يشجع الناس على الالتفاف والاستفادة من الدعاة والعلماء الذين ينتصبون أمثلة للمنهج السوي، كما كانوا يقولون: «**إذا رأيت أحداً يكره مالك بن أنس فاعلم أنه مبتدع**».

والجيل الذي لا يستفيد من الذين سبقوه ويبني على ما بنوا، ولا يقدر العلماء النابهين، سيكون مآل أمره إلى الإخفاق؛ لأنه سيعود في كل مرة إلى نقطة الصفر، ويعود إلى الأخطاء ذاتها، وتتكرر تجارب الإخفاق والنجاح.

وقد تبتلى الأمة أحياناً بأمثال الحجاج بن يوسف، الذي آذى الصحابي الجليل

أنس بن مالك فكتب إليه الخليفة عبد الملك موبخاً: «**والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً يخدم عزير بن عزرا، وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته، بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواريي المسيح لعظّموه وأكرموه**».

وعندما أنكر الشيخ أبو محمد العز بن عبد السلام على ملك دمشق ما عزم عليه من الصلح مع الصليبيين، أُخِذَ وسُجِنَ، ثم حمله الملك معه عندما ذهب لتوقيع هذا الصلح، ووضعه في خيمة انفرادية، وكأنه أراد أن يدل على «حسن النوايا» فقال للمفاوضين: هذا الشيخ أنكر عليّ الصلح معكم فكان جوابهم: «**لو عندنا مثل هذا الشيخ لغسلنا قدميه وشربنا غسالتهما**».

ونحن لا نطلب الغلو في الرجال كما يفعل النصارى، فهذا من أبعد الأشياء عن الإسلام، ولكن لا يجوز لنا أن نغمطهم حقهم، أو أن نطمس ذكرهم بكل ما أوتينا من الوسائل وعن غفلة وحسن نيّة أحياناً.

ونحن نرى بأعيننا مصداق ما قاله عبد الملك بن مروان، وما يفعله الأوروبيون الآن بعظمائهم أو بكل من أسهم في نهضتهم، ولا ينسون أحداً منهم، ولو كان عمله قليلاً. إن إهمال المجلات والصحف لكبار علمائنا شيء عجيب، فعندما توفي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لم تذكره إلا صحيفة واحدة، وفي زواية صغيرة من صفحاتها، وهؤلاء العلماء والدعاة لا يضيرهم عند الله أن يذكرهم الناس أو لا يذكروهم، ولكن أليس من حقهم علينا أن نستفيد منهم، وإذا لم نفعل هذا وبخسنا الناس أشياءهم، أليس في ذلك ظلم لنا ولهم؟!

* * *

يا له من دين لو أن له رجالاً

كلما أقرأ أو أسمع أنه في عام ١٩٩٢م ستكون السوق الأوربية المشتركة مفتوحة الحدود، مشرعة الأبواب لمواطنيها في التنقل والتجارة، ودون أية قيود وأنهم يستعدون لهذه النقلة - كلما أسمع ذلك يملكني الحزن والأسى، كيف يجتمع هؤلاء الناس ويتعاونون على ما بينهم من اختلاف اللغة، وعلى ما بينهم من إحن قديمة، وعلى ما بينهم من تعصب إقليمي عرقي، وكيف لا يجتمع المسلمون، والدعاة منهم بشكل أخص وبين أيديهم كل العوامل التي تحتم الاتحاد والتعاون والتناصر؟!

لا شك أن الذي يدفع بالغربيين إلى اتخاذ هذه الخطوات التعاونية هو نظرتهم للعواقب، والتفكر بالنتائج التي تتمخض عن هذا التعاون، وأنه يحقق لهم مصالح كثيرة، فهي سياسة دنيوية تقوم على استخدام العقل وتبعد العواطف والغرائز جانباً.

ولا شك أن الذي يمنع المسلمين من التعاون والتفاهم هو ضعف النظر في العواقب وعدم الانتباه لما يحيط بالمسلمين من أخطار، وما يتربَّص بهم من شرور، وتحكيم العواطف والنظرة الضيّقة، والنظر للمصالح الأنيّة والفردية، وليس الذي ينقصهم غيرة دينية أو نقص في الحماسة لنصرة الإسلام، وإنما هو التخلّف الحضاري الذي جعلهم لا يفكرون تفكيراً هادئاً متزناً مستبصراً، بل لا يستحثهم هذا الضعف الذي ابتلوا به فأصبحوا طُعمة لكل طامع ونُهبة لكل ناهب - لا يستحثهم على الاتحاد أو التعاون على الأقل.

إن بعض الغربيين يستغربون جداً أن تتكلم الشعوب العربية لغة واحدة، ويفهم كل منهم عن الآخر؛ ومع ذلك يكون بينهم هذا التفرّق والتناحر، وكأن كل قطر

قارة منعزلة، وكثيراً ما يسألون: هل يستطيع المصري التفاهم مع المغربي، أو العراقي مع اليمني؟! لأنهم لا يتصورون أن كل هذه الأقاليم التي تتكلم بلغة واحدة تكاد لا تتفق على شيء إلا على التفرّق والتناحر.

أتقام تكتلات كبيرة لأعداء الإسلام، ونحن نمارس هواية التشرذم والتفرّق، ونكثر من عدد اللافتات والعناوين؟!

أيقيم أعداء الإسلام دولاً طويلة عريضة على أفكار وكتب من اختراع بشر، بل هي من حثالة أفكار البشر، وكتاب الله بين أيدينا، وتفسيره بين ظهرانينا، وهو حبل الله المتين، وهو العروة الوثقى لا انفصام لها، ويبقى المسلمون على حالهم المزرية هذه؟!

ألا يحق لنا أن نطمع بمطلب متواضع من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، وهو التفكر بما يدور حولهم؟ وكيف يتكالب أعداء الإسلام تكالباً شديداً، ولا ينفكون لحظة واحدة عن التخطيط والتدبير، وتقليب الأمور، حتى يتسنى لهم دوام السيطرة والهيمنة على الأمم المغلوبة على أمرها؟

إن رؤية الحقيقة خير من التمادي في المراوغة، والقول بأن كل شيء يسير على أحسن ما يكون، والتبصُّر في العيوب وإبرازها في شجاعة، ومعالجتها وإن كان الدواء مؤلماً، أفضل من الإمعان في التغافل، والبقاء في دائرة التراشق بالتهم والتهم المضادة.

* * *

المؤسسات القديمة

عندما نتحدث عن التجديد فإنما نأمل من المسلم أن يصوغ شخصيته لتكون عندها القابلية للتجديد، فلا تخضع لمألوفات وعادات غير صحيحة، ولا تجمد عند فكر معين لا تتجاوزه وقد تَبَيَّن خطؤه أو أنه قيل في ظروف غير موجودة الآن.

وقد يكون المسلم معجباً بأعلام التجديد في العصور الإسلامية المتعاقبة، ويدعو إلى التجديد في كل عصر، ولكنه لا ينتبه لنفسه أنه وهو يمارس الدعوة قد جمد على أسلوب معين وأفكار طرحت قبل سنوات كان قد قرأها في بدايات عهده بالدعوة ولا يستطيع التحول عنها، فالنفس البشرية تميل للمحافظة على ما ألفت، وكثير من الناس لا يتعبون أنفسهم بالتفكير المستمر؛ فالنمط الذي عرفوه أسهل عليهم، ولا ينتشل نفسه من هذه «السهولة» إلا من أوتي عزماً أكيداً للتطلع إلى الأفضل دائماً، وملاحظة التغيرات المستجدّة، والظروف الطارئة، فهو في تجديد مستمر بين كل فينة وأخرى.

إن بعض الناس قد يحيطون مؤسسة ما ـ وخاصة إذا عُمِّرت طويلاً ـ بهالة من التقديس، وعندئذ فإن انتقادها أو التدخل في شؤونها يعتبر ضرباً من التطاول على الحرمات والانتهاك للمقدسات، وفي مثل هذه الأحوال فإن صَبَّ تيار جديد قوي لدفع التيار الأول يكون من الصعوبة بمكان، مع أن هذا يعطي الدعوة حيوية وقوة.

ولو عُمّر المؤسسون الأوائل لغيَّروا كثيراً من اجتهاداتهم؛ لأنهم سيعاصرون أحداثاً لم تكن في أوائل الدعوة، ولا يعارض التجديد في مثل هذه الظروف إلا غبي مشغوف بعبادة الأشخاص، أو انتهازي يريد بقاء الوضع على ما كان ليستفيد هو شخصياً من هذا البقاء، وقد تكون لهم مصلحة أكيدة في قيام بعض العادات

وترسيخها؛ لأنهم يستمدون من هذه العادات قوتهم وسلطتهم، ولذلك كان من حظ البشرية أن ينبغ فيهم بين الفينة والأخرى من يحملهم على التفكير حملاً.

إن تيار الحياة متدفق متجدد والذي لا يلاحظ التغيرات سيعيش بعيداً عن عصره، بعيداً عن واقعه، يتقوقع على نفسه مردداً ما سمعه من عشرات السنين، فالذين قرأوا ما كُتب عن جمال الدين الأفغاني قبل ثلاثين سنة ولم يقرأوا ما كتب عنه بعدئذ وما تكشفت عنه الحقائق، هؤلاء يتعجبون عندما يذكره أحد بنقد أو تقييم، فهو بنظرهم مصلح الشرق وملهمه، والذين تردد على أسماعهم اسم محمد علي جناح كمؤسس لباكستان كانوا يضعونه في مصاف العظماء الكبار، ثم تبين أن الرجل غربي النزعة مدخول العقيدة، وهذا ما يفسر قيام باكستان كأرض مستقلة للمسلمين ولكن لم تقم باكستان كدولة تحكم بالإسلام.

إن التحدي الذي يواجه المسلمين في هذا العصر ويحتاج إلى التجديد في طرائق الفكر والعمل، هو: كيف ننفذ منهج أهل السنة، ونستفيد من منتجات هذا العصر دون التنازل عن الفكرة والمبدأ؟ والمطلوب هو التنفيذ العملي، وليس الكلام في الكتب والمجلات عن (الأصالة والمعاصرة) أو (كيف نجمع بين ثقافتنا وتقنية الغرب..) فهل يشعر المسلمون بخطر التسويف والجمود في حين أن القافلة تسير؟!...

* * *

الحد الأدنى

إذا كان واقع المسلمين في هذه الأيام يضطرهم للمطالبة بـ «الحد الأدنى» من التعاون والتنسيق، خوفاً من البديل وهو التشهير والتمزيق، وإذا تحقق هذا التعاون اعتبر من المكاسب التي يجب المحافظة عليها والتمسك بها، ويقولون: هذا هو الواقع، ويجب أن نعترف به، ولا نكون مكابرين خياليين نسرح بالأحلام.

إذا كان هذا هو الواقع فنحن نوافقهم ولكن بشرط أن يكون هذا الشعار مؤقتاً؛ لأن أوضاع المسلمين فعلاً تحتاج إلى بدايةٍ مثلِ هذه، ولكن الذي نخشاه ونتخوّفه هو أن يرضوا بهذا الواقع، ويستمر هذا الشعار فترة طويلة فتموت الهمم، وتسترخي العزائم، ويستمرئ المسلمون هذه الحالة فلا يقومون بالأعمال العظيمة المطلوبة منهم في هذا العصر بالذات.

إننا نمر بفترات حرجة لا نحتاج فيها إلى التعاون والتنسيق بل إلى الانصهار في عمل كبير يعيد للمسلم عزته وكرامته، ويشعره بالثقة المفقودة، يعيد إليه الأمل والرجاء، إننا نحتاج إلى إنكارٍ للذات بالدرجة الأولى، فهو العقبة الكؤود كما يظهر لي، وتأتي الخطوة التالية بالعمل الدؤوب الذي لا يعرف الراحة، وإعمال الفكر في مستقبل المسلمين والإسلام، والطرق الصحيحة التي توحّد ولا تفرّق.

إن الساعات الحاسمة في التاريخ هي الساعات التي تتحوّل فيها الأمة كلها إلى «ورشة عمل» كلٌّ له مكانه وكلٌّ له مكانته، يشعر كل فرد أنه يشارك في البناء بل إنه ضروري لهذا البناء؛ هكذا قام المجتمع الإسلامي الأول عندما شارك المسلمون كلّهم في بناء المسجد بمن فيهم قائد هذا المجتمع رسول الله ﷺ، وعندما استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين وتنازلوا عن شطر أموالهم، ونفّذوا هذا عمليًّا ولم

يكتفوا بالأدبيات والكلام عن الأخوّة الإسلامية أو « يجب علينا أن نبني مسجداً » !

وإذا كنا نتكلّم عن الحد الأدنى فإن الغربيين قد انتهوا من بحث أمورهم الكبيرة، أمورهم الاستراتيجية. وفي اجتماعاتهم الآن يناقشون المشاكل الصغيرة التي لا تزال عالقة مثل مشكلة « الزبدة » كيف تُصَدَّر وتُستورد، وكيف يصرّفون الفائض منها.

وإحياء الأمة ودعوتها إلى استئناف دورها الخيري لا يتأتى إلا بأعمال كبيرة، وإن الحد الأدنى إذا استمر لا ينتج إلا الضعف، الذي يستطيع العيش طويلاً، ولكنه يبقى ضعفاً، وأخشى أن يسري هذا الداء حتى إلى عباداتنا وأعمالنا فلا نقوم إلا بـ « الحد الأدنى » من المطلوب، وتمرُّ السنون دون أن نحقّق عملاً كبيراً يرضي الله ويغيظ أعداء الإسلام ويشفي صدور قوم مؤمنين.

لا شك أن الخطوة الأولى هي التعاون الصادق، ولكن كم نتمنّى أن يتلو هذه الخطوة خطوات.

* * *

رجل الفطرة

يرجع الداعية ـ في بحثه الدؤوب عن أصحاب الفطرة السليمة، الذين لا يحملون بين جوانحهم عوامل الضعف والهزيمة النفسية ـ إلى سيرة معلم الخير محمد ﷺ، ليستلهم منها معالم تنير له الطريق.

ومن الدروس المستفادة من السيرة النبوية، أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعث أكرم خلقه من بيئة لا هي بالحضريّة المدنيّة المغرقة في الترف وفنون النعيم والملذات، ولا هي بالبدوية الجافية البعيدة عن التمدّن والعمل المشترك؛ فالأسر القرشية لم تصل بعد إلى تعقيدات المدنية ولم تأسرها الشكليات والمظاهر، ولا يزال شباب قريش يألفون الخشونة والفروسية، رغم عيشهم في بيئة تجارية مبتعدين عن خلق المذلّة والمراوغة التي يألفها من استحكمت فيه عوائد الترف أو عاش تحت قهر الاستبداد والبحث عن لقمة العيش في بيئة مادية لا رحمة فيها ولا شفقة.

ولا نعني من هذا أنه لا بد من العيش في قرى أو مدن صغيرة كمكة عند البعثة، فهذه سطحية في التفكير وسذاجة، ولكن المقصود هو العيش في أجواء الفطرة السليمة، أجواء التخفّف من القيود التي تكبّل المسلم عن الانطلاق في دعوته، هذه التي لم يأت بها شرع ولا حكم بها عقل، ولكن دواعي الانحطاط هي التي تهتف بها.

فالدعوة لا يتم أمرها ولا يقوى عودها إلا برجال تعوَّدوا الخشونة، تتجافى جنوبهم عن الانغماس في النعيم، كلما سمعوا هيعة طاروا إليها.

والرجل الذي عاش حياته راضياً بالقليل، بل خائفاً من ذهاب هذا القليل، عاش يسمع وصايا والدته تحذّره وتخوّفه من أي عمل عدا العمل الذي سيعيش منه، هذا

الرجل قد انغرس في نفسه الضعف، وأصبح بعيداً جدًّا عن المغامرة وركوب المصاعب، فهو دائماً يخاف من المجهول، يخاف من المستقبل، يفكر دائماً في الاحتياطات اللازمة لتدبير «العيش».

هذا الرجل الذي يحمل أتعاب مدينة مرّت عليها قرون وهي تعيش تحت قهر كل متغلّب، وتألف كل قادم، هو لا شك يشعر بضآلة نفسه وقصور همته، ولا يسمح لتفكيره بأن يخطر له ذكر الأعمال الكبيرة والمشروعات العظيمة، بل إذا حمل فكرة قوية يمسخها إلى «نصف» فكرة يؤوّلها حتى تتمشّى مع ضعفه وانحطاطه، فهو دائماً في منتصف طريق، ونصف نهضة لا هو بالبادئ، ولا هو بالمنتهي، فإذا تعلم ودرس أصبح نصف دارس أو نصف طبيب، وإذا كان موظّفاً يحسّ أنه جزء صغير من آلة ضخمة، فمثل هذا لا يساعد على التحفُّز لعمل كبير، فهو رجل «الحد الأدنى».

ونحن نريد رجل الفطرة الذي يملك حيوية الاندفاع والتضحية، فيه بساطة وسمو، فإذا عقل الإسلام وفقهه فقد جمع «نوراً على نور» وهو الرجل المؤهل للتغيير.

* * *

لا تقولوا الباطل

أخذ الله على العلماء ومن يتصدى للدعوة أن لا يكتموا العلم، ويبيّنوه للناس، ولا يخشوا أحداً إلا الله، وقد كان شرارُ أهل الكتاب علماءهم ورهبانهم؛ بما يكتمون من البينات وبما يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، وفضّل الله هذه الأمة فجعل علماءَها خيارَها، فأعطوا الكلمة حقها ورعوها حق رعايتها، والأمثلة في تاريخنا كثيرة.

جاء في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أن أبا جعفر الأنباري قال له، عندما امتحن ليقول بأقوال المعتزلة الباطل: «**يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن خلق، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجب. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله**»[1].

وجاء أيضاً: قال المروذي: يا أستاذ إنّ الله قال: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٩]. قال: يا مروذي اخرج فانظر، فخرجت إلى رحبة دار الخلافة فرأيت خلقاً لا يحصيهم إلا الله، والصحفُ في أيديهم والأقلامُ والمحابرُ، فقال لهم المروذي: ماذا تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، فدخل فأخبره، فقال: يا مروذي أُضِلُّ هؤلاء كلّهم؟!

أراد هذا الإمام المبجّل أن يضحي بنفسه، ولا يفسد عقائد الناس؛ لأنه مُتَّبَعٌ ومقتدى به. وبعض من يُقْتدىٰ بهم اليوم من الدعاة، وفي غمرة فقدان الوعي الشامل والاجتهاد الدعوي الصائب يقعون في ما تجنبه الإمام أحمد رحمه الله،

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٣٩).

سواء بتزكية من لا يستحق التزكية، أو بتسويغ لأوضاع غير سليمة، فيتبعهم الناس ويؤملّون الخير ويستبشرون، ولكن آمالهم تخيب بعدئذ.

وإذا كنّا - نحن المسلمين - مأمورين بقول الحقّ في تقويم الناس، وأن نعدل حتى في لحظات الغضب والشنآن، وإن كنا في معرض التقويم الشامل نقول عن الشجاع شجاعاً ولو كان كافراً، ونقول عن فلان إنه خدم بلاده من ناحية دنيوية، فإن هذا كله عندما تكون الصورة واضحة في أذهان الناس، ولا نلَبِّس عليهم أمور دينهم.

ونحن نعلم أن هؤلاء الدعاة لم يُكرَهوا حتى يقولوا ما ليس من موازين الإسلام في تقويم الرجال وإن ظنوا أن هذا فيه مصلحة للدين؛ بينما الحقيقة أن مفسدتها أكثر من مصلحتها.

ولذلك نقول لهؤلاء مخلصين مشفقين: إذا كنتم لا تستطيعون قول الحق فلا تقولوا الباطل، وذاك أضعف الإيمان.

* * *

أين دور العمل؟

مرت بالمسلمين فتراتٌ ضَعُفَ فيها العلم، وخاض الناس في أمور العقيدة أو الحديث أو الفقه أو الدعوة دون دليل صحيح معتبر، وتكلّموا في أخطر قضايا المسلمين بكلام إنشائي مرصوف، واستشهدوا بالأحاديث الضعيفة والموضوعة أحياناً.

ويُتَنبَّه لهذا النقص والخلل، ويبدأ التركيز على المصادر الإسلامية الأساسية والنهل من ينبوعها واعتبار الصحة والدليل، وتوثيق النصوص، حتى يقوم البناء على أساس متين، وهذا شيء لا غبار عليه بل هو مطلوب وضروري، ولكن كثيراً من الناس لا يستطيعون الاستمرار على طريق الاعتدال والوسطية فيغالون أو يقصرون في أي أمر يعرض عليهم، فإذا رُزِقوا العالِمَ الفطن ردّهم إلى الطريق السويّ.

فالعلم لا بد منه، ولا يقوم بنيان على الجهل، ولكن أن يتحول كل الشباب المسلم المخلص إلى مفتين، ونرى الطبيب والمهندس ومدرس العلوم أو الرياضيات أو مدرس الأدب واللغة، لا يتعمقون في دراساتهم ولا ينفعون المسلمين باختصاصهم، إلا في العموميات، وتجد في مكتبة الطبيب كل كتب التراث، ولا تجد المصادر الأساسية في مهنته، فهذا وضع غير طبيعي وخلل في فهم الأمور.

فهناك علماء متخصصون يستطيع هذا الأخ سؤالهم إذا استغلق عليه أمر أو أعيته مسألة.

هكذا كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يفعل إذا طرأت عليه مسألة جديدة، يجمع الصحابة ويشاورهم ولا يتهيأ مسبقاً بحفظ المتون وافتراض المشكلات والحلول.

وهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس يقول: أدركت هذا البلد «المدينة» وما

عندهم علم غير الكتاب والسنة، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء، فما اتفقوا عليه أنفذوه، وأنتم تكثرون من المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ.

وكبار الصحابة لم يكونوا من مكثري الروايات؛ فقد روى أبو عبيدة بن الجراح أربعة عشر حديثاً، وسلمان الفارسي ستين حديثاً، ومعاذ بن جبل مئة وسبعة وخمسين حديثاً، وغالبهم لا يروي إلا مئتي حديث أو ثلاث مئة حديث، وفي الصحيحين والسنن الأربع والموطأ ثمانية وستون حديثاً في الحثّ على الجهاد[1].

والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعون كانت عنايتهم بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيام الليل، وتفقّد مصالح المسلمين، ولا شك أن ذلك بعد تحصيل العلم الذي لا بد منه، ولم يطلب القرآن العلم الزائد على الكفاية كما طلب وحثّ على العمل ومدح الخاشعين في الصلاة، المعرضين عن اللغو، والصابرين: في البأساء، والضرّاء، وحين البأس.

وإذا كان هذا منهج السلف وهم متفرغون للعلم بما فتح الله عليهم من الدنيا، فكيف بنا الآن ونحن نساس بغيرنا، ويقرر أمرنا غيرنا، ونحتاج لأعداء الإسلام في كل صغيرة وكبيرة من أمور دنيانا، والمهامُّ الملقاة على عاتقنا كثيرة، وحال المسلمين العلميّة الآن أفضل مما كانت؟!

* * *

(١) العواصم من القواصم: (٢ / ٤٨٨).

ظاهرة التعلق بالأشخاص

هل صحيح أن كثيراً من المسلمين تخلّوا عن نزعة التعلّق بالأشخاص؟ وهل تخلّوا عن شغفهم بأن يكونوا مريدي الشيخ؟ نعم، تخلّوا عن ذلك ظاهريًّا وذهبت هذه النزعة نظريًّا على الأوراق في الكتب والمقالات، ولكن الحقيقة التي في داخلهم تقول: لا، فهم أبداً يمارسون هذا الدور ويحبون ممارسته، فهو مرض عضال.

لقد تخلّوا عن الشيخ بالمعنى الصوفي، ولكن تعلّقوا بالزعيم والقائد والحزب ولافتات وأسماء حلّت محل الشيخ في القداسة والعصمة، فهم يحنون إلى هذا الشيخ الجديد كما يحن الفصيل إلى أمه، فتجدهم ينتظرون الكلمة والإشارة من فمه، فكل ما ينطق به صواب، ويتناقلون كلامه وخطبه وأحاديثه أينما ذهبوا وحيثما حلّوا.

ولا شك أنك ترى عجباً من الأمر، وتحاول أن تردهم عن هذا ولكنهم يرجعون إليه بأساليب وأشكال أخرى، كأنهم أطفال يلوذون بأمّهم، ولا يستطيعون التصرّف وحدهم، نعم إنهم أطفال كبار!

وتسألني عن الدواء؟ الدواء هو التفكر فيما جنته هذه التربية العقيمة على المسلمين قديماً وحديثاً، والدواء هو استعادة الماضي القريب - ولا أقول البعيد - لنرى ما جرّ هذا المرض على الشباب، من كوارث وأخطاء.

الشباب الذين يفغرون أفواههم دهشة وغباء وإعجاباً عندما يسمعون خطبة رنّانة من كلِّ دَعيّ على العلم والدعوة، لا يفرقون بين العالم، ومن يُدّعى أنه عالم،

ولا بين المخلص والمنافق، ويستغلهم هؤلاء للوصول إلى مآربهم الدنيوية، ويقولون للآخرين: انظروا هذه الجموع التي تسير خلفنا، ويفهم الآخرون هذه الإشارة فيعطونهم بعض المكاسب الرخيصة، وإلى أجل أيضاً.

ونحن نتكلّم عن التعلّق المَرَضي بالأشخاص، الذي لا يستقيم معه حال، ولا يرجى له مآل؛ لأن هذا التعلق إنما هو مؤشر على مستوى التفكير، وعلى مرحلة من مراحل التدرُّج بالإنسان، فقد يكون الإنسان ذكياً أو كبيراً في السن ولكن عمره الاجتماعي لا يزال في مرحلة الطفولة. ولا يعني هذا عدم المتابعة والمحبة للعلماء العاملين والدّعاة المخلصين والاستفادة من تجربتهم واحترامهم وتوقيرهم، فهذا لا بد منه، فالحق وإن كان قويًّا بذاته لكن لا بد من أشخاص يحملونه.

وإذا سألتني: كيف نعرف هؤلاء من أولئك، حتى نستفيد من الدعاة العاملين؟ فأقول: من ثمراتهم تعرفهم.

* * *

الفرصة المتاحة

إنّ ما يحدث على الساحة العالمية هذه الأيام شيء يحتاج إلى وقفة تأمّل وتدبّر، فموجة المطالبة بالحريات الديمقراطية في الحكم تجتاح أعتى الدول دكتاتورية وقبضة حديدية: أمريكا الجنوبية ترجع شيئاً فشيئاً إلى طريق الانتخابات، الدول الشيوعية وعلى رأسها روسيا تقوم فيها المظاهرات مطالبة بإعادة الاعتبار للشعوب المقهورة، هل كان أحد يتوقع أن تقوم مظاهرة في موسكو؟! والروس هم الذين سحقوا الشعوب التي طالبت بشيء من الحرية، وما يحدث في الصين أعجب، لقد تظاهر المسلمون أيضاً يطالبون بحقوقهم، رغم أن العسكر رجعوا إلى عادتهم القديمة في قمع هذا الاتجاه.

لقد أفلست الشيوعية ومن قبلها الرأسمالية رغم أن الغرب يحاول الآن استغلال هذا الانهيار في الجانب الشيوعي ليقول للناس: إن البديل هو الليبرالية الرأسمالية، ولكن فعلهم هذا كمن يحاول تجميل وجه قبيح، أو إرجاع الشباب إلى عجوز شمطاء.

فالغرب وإن كان فيه بقية من قوة وحيوية سيتشبث بها وينفخ في نفوس أهله النزعة الاستعمارية المتأصلة، إلا أن الخلل والانحطاط في الحضارة الغربية بادٍ واضح للعيان، إذاً ما هو البديل العقائدي أو الفكري الذي يطرح نفسه في هذه الأيام؟

إن الإنسان لا يستطيع العيش في فراغ، ولا بد من شيء يملأ جوانحه، لا بد أن يعبد شيئاً ما، وأصدق الأسماء على الإنسان كما قال رسول الله ﷺ: «حارث وهمّام» فلا بد له من همٍّ يشغله، وليس هناك سوى الإسلام.

وإذا كانت اليابان سترث الغرب اقتصاديًّا وماليًّا، كما يتوقع بعض كتّاب الغرب المعاصرين، فإنها لا تستطيع أن تملأ الفراغ، فاليابان لا تملك فكراً متميّزاً تقدّمه للناس.

فهل يعي المسلمون خطورة مكانهم ومكانتهم ودورهم المهيأ لهم؟ وهل يستطيع المسلمون إعطاء صورة صادقة عن هذا الدين مما يجعل بعض النفوس التي أراد الله لها الهداية أن تُقْبِل على الإسلام؟ إن الأخلاق الإسلامية العالية، واتحاد الكلمة ووضوح الفكر، من أكبر الأسباب التي تؤثر في هؤلاء الناس، إنها فرصة متاحة لنشر الدعوة، وتوعية المسلمين الذين كانوا مقهورين تحت الحكم الروسي أو الصيني، وتوعية الجاليات الإسلامية في كل مكان.

وإذا كان الجهاد من أساسيات الدعوة، فإذا انعقدت سوقه وفتح بابه فهو من أسباب إظهار قوة الإسلام وعظمته والتبشير به، فكذلك إذا أتاح السلام في بعض المناطق فرصة للدعوة فيجب أن تستثمر وتستغل كما حدث في صلح الحديبية حيث أُعطيت فرصة كبيرة للمسلمين في التنقّل وجلب أنصار جدد. إن الفرص كثيرة، والمهم أن يهتبلها المسلمون في الوقت المناسب.

* * *

حديث في البناء

تَغَصُّ الساحة الإعلامية أحياناً بالمناقشات، والأخذ والردّ، وليست الغاية من وراء ذلك الوصول لنتائج ثم وضعها موضع التنفيذ، فهذا ينحاز لمذهب معين في الأدب، وهذا يخالفه، وذاك ينحاز لمدرسة فكريّة مغيّنة، وآخر يردّ عليه، وتسود الصفحات في المجلات والكتب، وتبدأ المعارك، ويرتاح البعض ظنًّا منهم أن هناك حركة، وأن الدنيا بخير والحمد لله، وينام قرير العين ملء جفونه، وبعضهم يحب هذه المعارك، كأنه يشاهد لعبة مصارعة يقضي معها وقتاً ممتعاً.

هذه المعارك وهذا السجال يذكرني بما كان يطلب منّا ونحن في المرحلة الابتدائية أن نكتب مواضيع في الإنشاء: «أيهما تفضل الصيف أم الشتاء؟» أو «قارن بين الليل والنهار» أو «بين السيف والقلم».. وعندما كبرنا كانت المناقشات: هل الوحدة العربية أم الوحدة الإسلامية؟ ـ مع الأسف لم تتحقق واحدة منهما ـ وأمثال هذه المقارنات التي تستسهل الأمور، وكأنها لا تحتاج إلى دراسة واعية متأنية كما تحتاج إلى تفصيل وتحقيق، ومن ثم إلى تطبيق وتنفيذ.

وإنني أخشى أن يكون كل هذا من قبيل تفريغ الطاقة وإرضاء النفس، أو الهروب من الواقع؛ لأننا بهذا نشعر أننا نتحرك، ولكنها حركة في المكان، بل أخشى أن يتحول هذا إلى مرض «الكلامولوجيا».

هل تُقضى الأعمار ونحن نتساجل في مواضيع تحتاج لدراسات من متخصصين أذكياء، متى إذن نؤسس مدرسة تربي الأجيال على الخلق القويم والعلم المفيد، وتنقذهم من طرق التعليم التي تستهلك طاقاتهم بحفظ معلومات ثم صبّها

في نهاية العام على أوراق الامتحان، ثم تنسى، والشباب ثروة لا تقدر فأين استغلال طاقتهم؟.

ومتى نبني مصنعاً نستغني فيه عن إنتاج الشرق والغرب؟! ومتى نؤسس شركة تستثمر أموال المسلمين المكدّسة التي لا يعرفون كيف يستثمرونها ونتيح فرص العمل لمئات من الشباب الجامعي؟! بل متى يكون عندنا مؤسسات علميّة تشجع الإنتاج العلمي في كل شيء، وتستفيد من طاقات العلماء والخبراء في شتى فروع المعرفة، ويجد المبدعون بواسطتها طريقاً لتحقيق إبداعهم؟!

نعم، لا بد من الردود والمناقشات ولكن بقدر، كردّ على مبتدع أو طالب علم أخطأ في أمور علميّة ونشرها بين الناس، أو رجل مستهتر بأخلاق الأمة وآدابها، كما أن المناقشة العلمية الهادفة التي نصل فيها لنتائج محققة هي شيء طيّب ومقبول، وقلَّ مثل ذلك في الحوار الهادف، إذا حسنت النوايا واستخدمت الأساليب المعقولة، ولم يتحول إلى جدل عقيمٍ القصدُ منه المغالبة وتسجيل الأهداف.

هذا هو المنهج الذي جاء به القرآن الكريم، فلم يدخل في جدل عقيم مع النصارى، بل قال: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وهذا ما فهمه الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ حين رفض مناظرة أبي يوسف بحضور الخليفة هارون الرشيد؛ لأنه ليس من منهج الإسلام أن يتحول الدين لمناظرات والمتفرجون يشاهدون: مَنْ يغلب؟

فالأصل هو البناء، وبناء المؤسسات.

ليعط كل ذي حق حقه

إن ما يجري على الساحة الإسلامية في هذه الأيام من الخلط في الأسماء والمسمَّيات شيء يدعو إلى العجب، فالناس يطلبون من المفكّر أن يكون فقيهاً، ومن الفقيه أن يكون خطيباً، ومن الواعظ أن يكون عالماً، وقد يُسأل المتفقّه أو المشتغل بعلم الحديث عن أدقّ الأمور السياسية فإذا أجاب أتى بالعظائم، ويُسأل الواعظ الخطيب عن أدق الأمور في العقيدة أو الفقه فيجيب بإجابات غير صحيحة أو غير دقيقة، وكأن المفترض في هؤلاء أن الواحد منهم إذا أتقن علماً معيناً أن يتقن باقي العلوم.

وبالجملة: فالناس يريدون أمةً في رجل، وينسون أن المواهب والقدرات موزّعة بين الناس، وقد لا تجتمع عدة مواهب إلا في الآحاد من الناس، وقد يفتح الله ـ سبحانه، وتعالى ـ على البعض بالخطابة المؤثرة التي تلبي حاجة العاطفة والوجدان، وعلى الآخرين بالحديث المشوّق الهادئ، ويتجه أناس نحو الكتابة وعالم الفكر، والناس في هذا ما بين عالم ومتعلّم، وكل يستفاد منه حسب طاقته وحسب اختصاصه.

يروى أن الخليفة العباسي المأمون أراد من المؤرخ الواقدي حفظ سورة من القرآن من أواسط المفصل فلم يقدر، فقال المأمون: «هذا رجل فتح الله عليه في التاريخ» وقد وصف أحد نقّاد العلم علماء عصره وقدراتهم ومكانتهم فقال: «سفيان الثوري عالم بالحديث، والإمام الأوزاعي عالم بالسنّة، والإمام مالك عالم بهما جميعاً».

فالأمر واضح عند هذا الجيل حول قدرات الناس ومكانتهم العلمية، فلا يرفعون أحداً فوق مكانته، ولا يبخسون أحداً حقه، بينما نرى اليوم أن أي متكلم أو خطيب مفوّه يقال له: العالم الشيخ الداعية، وهذا خلط وتلبيس على الناس يجعلهم يسألون ويستفتون من لا يصلح للفتيا والسؤال، حتى إن بعض من أسلم من الأوروبيين صار يُستفتىٰ وهو أحوج ما يكون إلى تعلّم الإسلام على أيدي العلماء.

كان أستاذنا الكبير محمد أمين المصري ـ رحمه الله ـ مدرساً للحديث النبوي في قسم الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية، وقد سمعته يوماً يقول: إذا كان هناك علماء فهو الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، أما أنا فـ «طُوَيْلِبُ عِلْمٍ»، وهذا من تواضعه ـ رحمه الله ـ وشدة تحرّيه ونقده، وكتابه: «تفسير سورة الأنفال» يدل على تحقيق وعلم غزير.

يجب أن يعلم المسلمون أن هناك علماء، وأن هناك طلبة علم.. ومتحدثين.. وخطباء وكتّاباً.. فتوضع الأمور في مواضعها، وترجع إلى نصابها، ويستفاد من الطاقات كل في موضعه.

فالشخصية المحببة للناس الذي يتقن فن العلاقات العامة، يصلح للتصدي لإرشاد الناس والتحدّث إليهم، والمفكّر الإسلامي قد يكون بعيداً عن هذه الأجواء ولكن يستفاد منه في عمق الملاحظة ودراسة تطورات المجتمع وعلله وخفاياه، وقد يطلب من العالم أكثر مما يطلب من غيره؛ فالأصل فيه أن يكون «ربانيًّا» يربي الأمة ويسوسها، فإذا لم يوجد فلنستفد من كلٍّ ومقدرته وما فتح الله عليه به.

ولولا رهطك لرجمناك

من المبادئ الأساسية في الدعوة الإسلامية التعاون والتناصر بين المؤمنين، وتطبيق مبدأ الأخوّة تطبيقاً علميًّا، والابتعاد عن خلق التفاخر الجاهلي بالأنساب والقبائل، هذا هو الأصل؛ ولكن قد تأتي النصرة والمساعدة الفردية من القريب أو العشيرة أو من صديق الدراسة، لا من قبيل التديّن والأخوة الإسلامية، ولكن عصبية نسبية، وأريحية ونخوة، فهل يرفض المسلم هذا التأييد، خاصة إذا كان في مرحلة الضعف، مع أنه لا يتنازل عن شيء من دينه أو عقيدته، ولا هم يساومونه أو يطلبون منه المداهنة؟

إن بعضاً من الشباب المسلم ولحساسية هذا الموضوع، ولقلة فقههم في أصول الدعوة يرفضون مثل هذه المساعدة والتأييد، ولكنهم لو تدبَّروا القرآن لوجدوا أنه ذكر قصص بعض الأنبياء وكيف لم تصل إليهم أيدي الكفار بسبب عصبية قبائلهم وأقربائهم، قال تعالى حاكياً عن شعيب عليه السلام، وقومه: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ [هود: ٩١].

فهذه الآية تنبئنا أن الكفار لم يستطيعوا الوصول إلى شعيب بالأذى، خوفاً من قبيلته.

وكذلك ذكر ـ تعالى ـ في صالح وقومه: ﴿**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ**﴾ [النمل: ٤٩] فهم يخافون من أولياء صالح، عليه السلام «عشيرته الأقربين» ولو فعلوا به سوءاً لفعلوه سرًّا، ولحلفوا لهم

أنهم ما فعلوا شيئاً، وقال ـ تعالى ـ مخاطباً نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ [الضحى: ٦] أي آواك إلى عمك أبي طالب.

قال الشيخ الشنقيطي معلّقاً على هذه الآيات: «وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله ويعزه بنصرة قريبه الكافر» ولهذا لما كان نبي الله لوط، عليه السلام، ليس له عصبة ظهر هذا فيهم لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم ولم يناصرهم بنو عبد شمس، عرف النبي ﷺ، لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية النسب، لا صلة لها بالدين فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم وقال: «إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام» ومنع بني عبد شمس وبني نوفل مع أن الجميع أولاد عبد مناف[1].

هناك فرق بين الموالاة والمداهنة، وبين أن يعرض قريب أو صديق خدماته ومساعدته لمسلم، ويستفيد المسلم من هذا لدفع ظلم أو تخفيف ضرر، ويبقى الأصل هو عدم موالاة الكفار، وزجر أهل الفسوق والبدع، وكل هذا يحتاج لفقه في الدعوة واستقامة على الطريق.

---

(١) أضواء البيان: (٣/ ٤١).

أيها الدعاة.. لا تفسدوا الأخوة

من أثمن ما يملكه المسلم في هذه الحياة الدنيا بعد الصلة بالله عقد الأخوّة الإيمانيَّة الذي عقده مع من يحبهم في الله، وتعاهد معهم على العمل سويّة في سبيل نصرة دين الله.

هذا العقد من أقوى الأسباب لمجابهة الصعاب والتحدّيات، ولحلّ المشكلات التي تعترض الطريق، وبه يشعر المسلم أنه ليس وحيداً، فهناك من يشد أزره ويضع يده على يده، غير أن هذه الأخوّة قد تعكّر صفوها هَنات وهفوات، هي صغيرة ولكنها تكبر مع الأيام ويكبر أثرها، فتنفر القلوب، وتقع الوحشة، وهذا مزلق خطير يجب على الأخ المسلم تجنّبه، فخسارة أخ لا يعوّضها أي شيء.

إن كثرة العتاب وكثرة المماراة والجدال، خاصة إذا شابها نيّة إظهار التميّز وفضل العقل، بل وكثرة المزاح؛ من الأشياء التي تؤدي إلى الوحشة، قال أصحاب طبّ القلوب: «**إذا قصَّر الأخ في حق أخيه فالواجب الاحتمال والعفو والصفح إلا إن كان بحيث يؤدي استمراره إلى القطيعة؛ فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكل**».

إن الأخوة التي نحرص عليها كل الحرص، ونَعضُّ عليها بالنواجذ خاصة في مثل هذه الأيام والظروف التي تمرّ بالمسلمين لها حقوق إذا قمنا بها فلعلّها تستمر وتقوى، ومن هذه الحقوق: **التفقّد لأحواله والسؤال عن حاجته**، قبل أن يضطر إلى طلب المساعدة والعون، فهذا هو الأليق، وهذا هو الذي يفرحه ويسرّه، فإذا

نسيت وسألك حاجته فبادر إلى قضائها، وإذا لم تفعل هذا فكبّر على هذه الأخوة.

ومنها: **الوفاء والثبات عليها**، فلا يذكره إلا بخير، ويحفظ غيبته، فلا يعرِّض به أمام الآخرين بأسلوبٍ ظاهرُه الشفقة وباطنُه الغيبة المحضة، بل يجب عليه استحضار محاسن أخيه وحفظه في أسراره فلا يبثها للآخرين، وبذلك لا يدع للشيطان مدخلاً: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومنها: **ترك التكلف**: حتى لا يشعر الأخ أنه غريب عن أخيه، ولا يلجئه إلى الاعتذار دائماً، بسبب هفوة صغيرة، وكلمة عابرة، ويحاسبه على النقير والقطمير، وليتذكر قول الشاعر:

ولســـــت بمستبقٍ أخاً لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذَّب؟

والأخوّة الإيمانيّة أكبر من هذا، فإذا أفسدها ما نحن فيه من أنانية، وضيق أفق، وانشغال بصغائر الأمور أحياناً، فيجب أن نعترف أنه ليس ها هنا أخوّة، بل كلمات خطابية جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع، وما نحن فيه إنّما هو مخالطة رسمية، وصورة مشوّهة عن أخلاق المسلمين الأوائل، ومجاملات ليس لها أثر في العقل والدين.

* * *

وحدة الصف ووحدة المنهج

إذا كانت وحدة العمل الإسلامي من المطالب الملحّة عند كثير من الدعاة الذين بدأوا يتحسّسون مواطن الخلل ومواطن القوة عند المسلمين، وإذا كان هذا المطلب مما يأمر به الدين ويحث عليه؛ لأنه من التعاون على البر والتقوى، فإنه يزداد إلحاحاً في هذه الأيام التي تجري فيها تغيّرات في العالم لم تكن بالحسبان ولم يتوقعها أحد؛ **انهيارات في الكتلة الشرقية، وانحسار للشيوعية، وتقارب بين الغرب والشرق**، والمستفيد حتى الآن هو الغرب الرأسمالي الليبرالي.

قدّمت روسيا تنازلات كثيرة في سبيل التقرّب من هذا الغرب الذي يمتلك التقنية والمال والسيطرة السياسية، فمَنْ يقف في وجه هذا التكتل على الأقل من الناحية الحضارية والعقائدية؟ مَنْ من شعوب العالم الثالث يملك هوية واضحة، ومنهجاً متكاملاً؟ لا يوجد سوى الإسلام، ومن المفترض أن يقود الشعوبَ الإسلاميةَ العلماءُ والدعاةُ، وإذا كانوا غير مؤهلين لذلك ولم يستطيعوا الجلوس على مائدة الحوار والتعاون فلمن تُتْرَك الساحة؟

كنت أحاضر في أحد المراكز الإسلامية عن واقع الإسلام اليوم وما يحدث في أوروبا هذه الأيام، وعندما جاء دور الأسئلة أو المناقشة علّق أحد الحضور «وأظنه من العمال المتعلّمين» قائلاً: «**الدنيا سائرة؛ وإذا كنتم تريدون أن يكون للإسلام حضور فيجب أن تبدأوا وتسرعوا، وإلا فالناس لا ينتظرونكم طويلاً...**».

وعجبت من نظرته الواقعية وتذكرت رأي ابن خلدون في أن العوام الذين يملكون الفطرة السليمة والتجربة العملية عندهم القدرة على معرفة الواقع، وخاصة

الواقع السياسي أكثر من أصحاب التنظير المجرد الغارقين في الثقافة الذهنية الباردة.

وتذكرت قول صديق أرسل لي رسالة قال فيها: «**إذا كان المطل**[1] **ممكناً في الأسلاف المستحقة ماليًّا فهو متعذر في الاستحقاقات الحضاريّة**».

وعندما نتكلم عن وحدة الصف ووحدة العمل الإسلامي فإنّما نعني تجمّع أصحاب المنهج الواحد، منهج خير القرون؛ وليس تجمّعاً يرضي الجميع مع التساهل في شيء من شريعة الله، فهذه من مداخل الشيطان التي ظاهرها الخير وتأليف القلوب، وباطنها تجمّع هش لا يصمد في وجه التحديات الداخلية والخارجية.

إن هؤلاء الكفار يمكرون في الليل والنهار ولا يملون من كثرة الاجتماعات وكثرة المناقشات وتقليب وجهات النظر للاستقرار على أمر يريدونه.

أيطلب أهل الباطل أمرهم بجد ونحن نطلبه ببطء وتراخ؟ وينطبق علينا قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «**اللهم إني أشكو إليك جَلَدَ الفاجر وعَجْزَ المؤمن**».

* * *

(١) المماطلة.

بين يدي الدعوة

إن وسائل دعوة غير المسلمين كثيرة، والداعية الموفق يختار من الأساليب ما يشعر أنه مؤثر وناجح، وبعض الناس قد لا يستجيب للدعوة إلا أن يرى شيئاً عظيماً يجعله يقف مبهوراً معجباً، شيئاً يشدّه إلى الإسلام شدًّا، ويأسره أسراً، ويجعله يعيد حساباته ويفكر بعمق ويقارن بين الماضي والحاضر ثم يتخذ في نفسه القرار.

لقد قرر أن يستسلم ولكنه استسلام الحازم المطمئن الذي عرف الحقيقة فعلاً، وليس استسلام العاجز أو صاحب غرض.

* هكذا وقفت ملكة سبأ ـ التي كانت تعبد الشمس هي وقومها عندما دعاها سليمان، عليه السلام، إلى الإسلام ـ أبت أن تنقاد مع اعترافها بضعفها أمام قوة سليمان وجنوده، ولكن عندما دخلت الصرح وحسبته لجّة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] لقد عُرضت عليها مظاهر القوة الخارقة لتؤثر في قلبها وتقودها إلى الإيمان، وفي الإسلام ليس الأصل هو المعجزات الماديّة ـ وإن جاءت عفواً وإكراماً فلا بأس ـ ولكن أليس التزام المسلم وتطبيقه في كل شؤون حياته أكبر معجزة؟

* وفي قصة إسلام خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ أنه خرج من مكة ميمماً شطر المدينة فلقيه في الطريق عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ فقال له: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: لقد استقام الميسم «أي وضح الطريق». وهاجرا معاً إلى المدينة.

إن خالداً قائد عسكري فذ، ولا يخفى عليه أن انتصارات محمد ﷺ، إنما هي انتصارات دين سماوي، انتصارات نبي يمثل الكمال البشري، مؤيّدٍ من الله يسدّده ويرشده. وبعد معارك وصراع من بدر إلى الحديبية استسلم خالد بن الوليد؛ ولكنه استسلام القوي العاقل الذي يعرف مواقع الحزم واتخاذ القرار المناسب.

وقد سمعنا في العصر الحديث أن بعض الكفار من الأوروبيين أسلموا عندما رأوا صفوف المسلمين في الصلاة، وخشوعهم وإقبالهم على الله، قال الفيلسوف الفرنسي «رينان»: «**كلما رأيت صفوف المسلمين في الصلاة أتأسف أني لست مسلماً**» إنها كلمة صدق من كذوب، فما الذي يمنعه عن الإسلام.

إن عرض الإسلام عرضاً جذاباً مع العلم الراسخ قد يكون من المؤثرات الفعّالة في إقبال الناس على هذا الدين، كما وُصف ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ حين فسّر سورة البقرة في أيام منى من الحج، قال من سمعه: «**لو سمع تفسيره يهود أو نصارى لأسلموا**» وإن أعظم دعوة للإسلام هو التزام المسلمين بشريعة الإسلام وشعائره وآدابه وأخلاقه، وإصرارهم على هذا، وتحدّيهم للمجتمعات المنحرفة.

* * *

بين الشيوخ والشباب

لا أعتقد أن التشدّد أو التساهل كلمتان مناسبتان لوصف داعية إسلامي أو اتجاه إسلامي، فالرسول ﷺ، غضب غضباً شديداً عندما رأى معاذاً ـ رضي الله عنه ـ يطيل في القراءة في الصلاة وهو إمام وقال له: «**أفتّان أنت يا معاذ؟**».

فالمتشدد يوحي للناس بشكل غير مباشر أن هذا هو الإسلام، وقد يصرف بعض الناس عن الخير، والمتشدد كأنه يتمنّى في داخله لو أن الإسلام أمر بهذا أو شدد في هذا، وهو في هذه الحال يضيّق على نفسه وعلى المسلمين، ويحاول أن يفهم النصوص فهماً خاصًّا.

وقلْ مثل ذلك في المترخّص أو أكثر فهو يحاول التهرّب من النصوص أو الالتفاف عليها، ويتقرّب من الناس ويشعرهم أن الإسلام ليس بالذي يتصوّرونه، ويضغط عليه أقوام يريدون «فتاوى» جاهزة تناسبهم، فإذا استجاب فإنهم يطلبون منه أكثر. ودين الله بين الغالي والجافي، وأظن أن المسلم يعرف هذا من نفسه إذا راقبها وبحث في داخلها، هل يميل إلى التشدّد لشهوة في نفسه أم لا؟ وكِلا الطرفين فيه شهوة خفيّة.

الْتقيت بشباب يميلون إلى التشدد، لا نتهمهم في إخلاصهم وحبّهم لهذا الدين، وحبّهم لنشره بين الناس وتطبيقه منهجاً وسلوكاً، ولكنهم أُتُوا من قبل قراءاتهم للكتب وقلّة العلماء الربانيين الذين يوجّهونهم ويوضّحون لهم كل مسألة، صغرت أم كبرت، فظهر لهم بعد طول القراءة، أن هذا من السنة، وهذا من السنة ولا يفرّقون بين السنة التي نؤمر بها على وجه المتابعة والتعبّد والمشروعية، وبين السنة

التي فعلها الرسول ﷺ، على وجه العادة في قومه وكونه بشراً.

وإلى هؤلاء نقول: ارفقوا بأنفسكم وبالمسلمين نحن لا ندعوكم إلى التساهل أو ترك شيء من الإسلام؛ ولكن تأكّدوا قبل أن تلتزموا بشيء أو تلزموا الناس به، تأكّدوا من مشروعيته، ثم كيفية عرضه على الناس، وإلا جاءت النتائج بعكس ما تؤمّلون، إنكم تريدون الخير للمسلمين، وتجدون الإعراض عنكم.

وفي الأسبوع الذي ألتقيت فيه بهؤلاء الشباب قرأت مقابلة في إحدى الصحف لأحد الشيوخ الدعاة، تكلم فيها غن المرأة وصبّ جام غضبه على الإسلاميين الذين يختنقون أنفاسها، ولا يبرزونها لتكون قائدة من قوّاد العمل الإسلامي، ويقول: «**ورغم أن المرأة ذهبت للجامعة وخرجت للعمل والسوق، ولكنها لا تزال محرومة من الصلاة في المساجد «يقصد الصلوات الخمس»**.

نحن لا نقلل من أهمية فهم المرأة للإسلام، ودورها في ذلك، ولكن لماذا يُستدرج الدعاة دائماً للكلام عن المرأة وكأنها هي المشكلة الرئيسية؟ فإذا حُلّت هذه المشكلة حُلّت كل المشاكل، وهذا ديدن الصحفيين، يريدن «الفتاوى» التي تعجبهم لينشروها بين الناس.

وفي تلك المقابلة قال الشيخ: «**إن الديمقراطية المعاصرة هي الشورى الإسلامية**» هكذا وبكل بساطة وسهولة. مع أن الخلاف بينهما كبير «وليس هذا مجال تفصيله» ولكنه لو قال: إن الإسلام يكره الاستبداد؛ والديمقراطية ـ على ما فيها من خلل كبير وهذا يعترف به الغربيون ـ هي أفضل من النظم الدكتاتورية لكان كلامه صحيحاً. أما أن تكون الديمقراطية التي تمارس الآن هي الشورى الإسلامية أو صنواً لها فهذا تساهل، والفتوى أمانة برقاب العلماء، والصراط المستقيم الأعدل هو المطلوب.

الصحبة القديمة

جاء في كتاب «فضائل الصحابة»: أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ شكا خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «**يا خالد لِمَ تؤذي رجلاً من أهل بدر، لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله**»(١).

وجاء في صحيح مسلم: «كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبّوا أصحابي فإن أحدَكم لو أنفق مثلَ أحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه**»(٢).

ومع بقاء هذه الأحاديث على عمومها، فإن من الواضح أن رسول الله ﷺ، وجَّه خالداً ـ رضي الله عنه ـ إلى احترام صحبة معيّنة وهي الصحبة القديمة، فهؤلاء لهم منزلة خاصة، منزلة أوائل من أسلم وسار مع الدعوة في دربها الطويل من التعذيب والحصار والهجرة، سار مع الدعوة في السرّاء والضرّاء، وكان مع الوحي الإلهي وهو يتنزّل آية آية وسورة سورة، هؤلاء الصحب هم أجدر الناس بحب رسول الله ﷺ، وتقديره لهم.

والذين جاؤوا بعد ذلك قد يكون فيهم من يملك طاقات ومواهب ويقدّم خدمات جلّى للدعوة الإسلامية، ولكن يبقى للرعيل الأول منزلتهم، والإسلام ليس فيه طبقية ولا كهنوت، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويُرَدّ عليه، وليس عندنا شيخ ومريد،

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل/ فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله بن محمد بن عباسي.
(٢) صحيح مسلم (٧/ ١٨٨).

ولكن من له باع طويل في الدعوة، والتُّقى ظاهر عليه فيجب أن يحترم، ولا يتطاول عليه من هو ناشئ غِرٌّ؛ والحقيقة أنه ليس أضر على العمل الإسلامي، بل على الأمم من نشوء صراع بين الجيل القديم والجيل الجديد، فلا يستفاد من خبرة أولئك ولا من حماسة هؤلاء.

وقد عاتب الله ـ سبحانه، وتعالى ـ أهل بدر عتاباً شديداً بسبب اختلافهم حول الغنائم، وكان هذا الخلاف بين الشباب والشيوخ، فقال الشباب: نحن جمعنا الغنائم وطاردنا العدو، وقال الشيوخ: ونحن كنا ردءاً لكم ونحمي رسول الله، ﷺ، فأنزل تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ...** ﴾ [الأنفال: ١].

فليحذر الدعاة من هذا المزلق، الذي يتلبّس باسم الأمر بالمعروف أو بشبهة استعجال الطريق، أو قد يكون جهلاً بعواقب الأمور، والعجيب أن يسبقنا الغربيون إلى هذه الفضيلة، فلا يدعون فرصة تفوتهم إلاّ ويستفيدون من كبارهم وعقلائهم، ولا يهملونهم؛ بل إن هذا الأمر واضح عند العوام في بلادنا فيقولون: «**الذي ليس عنده كبير، يشتري له كبيراً**» أو «**الذي ليس عنده كبير ما عنده تدبير**».

والمسلمون في هذه الأيام بأشد الحاجة إلى كل طاقة وكل خبرة، ونرجو أن لا تتبدد بالخصومات المفتعلة.

* * *

فوائد المحن

اللهم إنّا لا نتطلبها، أو نقول إننا سنصبر عليها، أو نحن مستعدون لها؛ فلا يجوز لمسلم أن يعرض نفسه للفتنة وقد لا يصبر عليها، أو يضع نفسه موضع الذلّ واالهوان، أو موضع المتسلَّط عليه من الكفار، فنصبح فتنة للذين كفروا، ولكن إذا تعرّض المسلم للمصائب والمحن بقدر من الله ولحكمة يريدها الله فلا بد أن يصبر ويتّقي الله، وبعدها يؤتي الله نصره من يشاء، وعندما يتعرّض المسلمون للمحن والرزايا فلا شك أن في ذلك فوائد كثيرة يريدها الله كتمحيص الصفوف ومعرفة الصابرين المجاهدين والدخلاء الذين هم غثاء كغثاء السيل.

وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ لفتات طيّبة في هذا الموضوع ننقلها بطولها لأهميتها، قال:

«وللمصائب والمحن فوائد تختلف باختلاف رتب الناس»:

إحداها: معرفة عزّ الربوبية وقهرها.

الثانية: معرفة ذلّ العبودية وكسرها وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره، لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه.

الثالثة: الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلاّ إليه: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام: ١٧].

الرابعة: التضرّع والدعاء: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا** ﴾ [يونس: ١٢].

الخامسة: تمحيصها للذنوب والخطايا «**ولا يصيبُ المؤمنَ وَصَبٌ ولا نَصَبٌ حتى الهمُّ يهمُّه والشوكةُ يُشاكُها إلا كفّر به عن سيئاته**» رواه مسلم.

السادسة: ما في طيّها من الفوائد الخفية ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩].

ولما أخذ الجبّار سارة من إبراهيم، عليه السلام، كان في طيّ تلك البليّة أن أخدمها هاجر فولدت إسماعيل لإبراهيم، عليهما السلام، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين، فأعْظِمْ بذلك من خير كان في طَيّ تلك البليّة.

السابعة: أن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبّر والتجبّر.

ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، كالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وتغرّبوا عن أوطانهم، وتكاثر أعداؤهم، ولم يشبع سيد الأولين من خبز مرتين، وأوذي بأنواع الأذية، وابتلي في آخر الأمر بمسيلمة وطليحة والعنسي، قال عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح: تصرعها مرة، وتعدلها مرة حتى تهيج**».

الثامنة: الرضا الموجب لرضوان الله ـ تعالى ـ، فإن المصائب تنزل بالبرِّ والفاجر، فمن سخطها فله السخط، ومن رضيها فله الرضى.

ونحن نسأل الله ـ تعالى ـ أن يمكن للمسلمين بعد المحن والرزايا، وأن يستفيد المسلمون الدروس الكبيرة من هذه المحن.

من سنن الانبياء الأخذ بالأسباب المادية

في غمرة الاندفاع العاطفي، وزحمة الأحداث والقراءات السطحية، يتناسى المسلمون، أو قد يجهلون سنن التغيير التي أودعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفي كتابه، أو أجراها على لسان نبيه، ﷺ، وبعض هذه السنن يعرفها الناس بالتجربة الطويلة والخبرات المتراكمة المتأملة.

ومن هذه السنن أن الدعوات الصادقة إذا أريد لها النجاح لا بد لها من قوى تؤيدها وتنصرها، قوى من التكتل الجماهيري الذي يلتف حول هدف واضح محدد. أو بمصطلح ابن خلدون: لا بد من «العصبية» التي تعني الالتحام والتعاضد والتنافر لتحقيق هدف معين، وليس المعنى المذموم لكلمة «عصبية».

وإذا كان التكتل سابقاً يعتمد على القبائل والعشائر، فإنه في العصر الحديث يعتمد على جميع شرائح المجتمع الذين يلتفون حول علماء فقهاء؛ يعلمون بفقههم وتفكيرهم سنن التغيير وتحويل المجتمعات والتأثير فيها، وخاصة ما نحن فيه من تعقيدات هذا العصر.

هذه القوة والمنعة هي التي افتقدها نبي الله لوط ـ عليه السلام ـ حين قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فقال رسول الله، ﷺ: «رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، وما بعث الله بعده نبيًّا إلا وهو في ثروة من قومه»[١].

ويقول الإمام الجويني: «ما ابتعث الله نبيًّا في الأمم السالفة حتى أيّده وعضّده

بسلطان ذي عدة ونجدة، ومن الرسل، عليهم السلام، من اجتمعت له النبوة والأيد والقوة كداود وموسى وسليمان، صلوات الله عليهم أجمعين»[1].

فإذا كان الأنبياء يؤيَّدون «بثروة من قومهم» وهي القوة والمنعة في العدد والعدة، وهم مع ذلك مؤيدون بالمعجزات وخوارق العادات، فكيف بغيرهم الذين يرومون التغيير بالعشرات أو المئات، ويقولون نحن نتوكل على الله؟! لا شك أن المسلم يطلب العون من الله ويتوكّل عليه، والله ـ سبحانه ـ وعد المسلمين بالنصر ولكن لا بد من الأخذ بالأسباب الشرعية، ومن أهمها تجميع القوى التي تناصر وتعاضد.

هل درسنا هذا الموضوع بعمق وأناة أم أن مقولة: «**نعمل والنتائج على الله**»، لا تزال هي الشائعة والأكثر قبولاً ورواجاً، مع أنها ظاهريًّا صحيحة، فهي كلمة حق تستخدم في غير محلّها، فالقول بأننا نعمل يجب أن يمحص؛ إذ ما يدريك أن عملك صواب، قد أخذت فيه بالأسباب؟ نعم إذا بذل الجهد الصحيح فالنتائج على الله، أما أن يُعمل أيُّ عمل ثم يقال: «**النتائج على الله**» فهذا ضرب من حب السهولة، وهروب من النقد، وحتى نستريح نفسيًّا من اللوم والتقريع، وحتى مع توفر عنصر الإخلاص في هذا العمل، فهذا لا يكفي فلا بد من معرفة سنن الله في التغيير.

* * *

الملل من كواذب الاخلاق

جاء في صحيح ابن حبان عن عائشة - رضي الله عنها - خُلُقٌ من أخلاق الرسول، ﷺ، قالت: «**كان عمله ديمة**»[1] وفي حديث آخر قالت: «**كان أحب الأعمال إلى رسول الله، ﷺ، الذي يدوم عليه صاحبه**»[2].

أراد رسول الله ﷺ، تعويدنا على المثابرة والدأب على العمل الذي نبدأ به، وأن يكون نَفَسُنا طويلاً فلا ننقطع لأيّ عارض، ولا شك أن هذا الخُلُق وهذه العادة من أكبر أسباب نجاح الأمم والأفراد.

لقد افتقدنا هذا الخُلُق في الأزمنة المتأخرة فما أن نبدأ بعمل أو مشروع ما حتى ننقطع، وما أن نسير خطوات حتى نملّ ونتعب، وكم من مشاريع علميّة أو اقتصاديّة بُدئ بها ثم انقطعت، سواء كانت مشاريع فردية أم جماعية. وبعد الانقطاع تتغيّر الوجهة من جديد، والسبب في هذا هو أن الطبع ملول، ولم نتعلم بعدُ «فن التعاون» فيما بيننا، ونريد قطف الثمرة بسرعة.

ولو تصفحنا التاريخ لوجدنا أن كبار علمائنا لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلاّ بالمثابرة والمصابرة، وكم عانى علماء الحديث من الترحل ومشقة الأسفار، وغيرهم من العلماء ما تسنموا هذه المنازل إلاّ بعد أن جثوا على الركب سنين، وكان أحدهم يسهر أكثر الليل يفكر بالمسألة ويقلّب فيها وجهات النظر.

---

(١) صحيح ابن حبان (٢ / ٢٧) بتحقيق الأرنؤوط. قال ابن الأثير: الديمة: المطر الدائم في سكون.

(٢) المصدر السابق (٢ / ٢٨).

وإذا جاز لنا التعلّم من أعدائنا، فإن هذا الخلق موجود عند الغربيين؛ يستقرّ المبشر بالنصرانية في قرية منقطعة في غابات آسيا أو أدغال إفريقيا سنوات وهو يدعو إلى باطله، وتكون النتائج غالباً ضئيلة، فلا يخرج إلاّ بالآحاد الذين تنصروا ومع ذلك لا يسأم ولا يمل.

وقد يتعجب المرء إذا علم أن بعض الصحف والمجلات الغربية لا تزال تصدر من مئة سنة أو أكثر وبالاسم نفسه ودون انقطاع، وبعض مؤسساتهم عمرها مئات السنين لم تتغير حتى في شكلها، فمقر رئاسة الوزراء في بريطانيا «١٠ داوننغ ستريت» عمره «٢٥٠» سنة ولم يفكّروا بالانتقال إلى مكان أوسع وأرحب.

وأما مشاريعهم العلمية الطويلة الأمد فيعرفها كل طالب علم؛ فالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، وكتابة المستشرق «دوزي» لتاريخ المسلمين في الأندلس استغرقت عشرين سنة، وكذلك مشروع تاريخ التراث العربي.

إن هذا الاستمرار الطويل يعطي رسوخاً وتجربة، ويخرج أجيالاً تربت من خلال هذه الاستمرارية، والانقطاع لا ينتج عنه إلا الخيبة والندامة، وقد نهانا الله سبحانه وتعالى أن نكون ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢].

وهذا عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ عندما كان أميراً على مصر وقد ركب بغلة قد شمط وجهها، واجتاز بها منزل أمراء الصحابة وكبار القواد في الفسطاط، فقال له أحدُهم: «أتركب هذه البغلة وأنت من أقدر الناس على امتطاء أكرم ناخرة «أي فرس» بمصر؟» فقال: «لا مللَ عندي لدابتي ما حملت رحلي، ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي، ولا لصديقي ما حفظ سرّي؛ فإن الملل من كواذب الأخلاق».

مأزق البعد الواحد

بعض الناس إذا سمعوا قول القائل: (الناس أبناء ما يحسنون) أو قول الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محمـــوده عن النســـب

أو قول أحد الحكماء: «الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية».. إذا سمعوا هذا يأخذون منه استبعاد الأنساب وعدم الاهتمام بها، وأنها لا تدخل في أي تقويم للإنسان، والحقيقة أن مثل هذا الكلام إنما يؤتى به لمعالجة من يقتصرون على مآثر الآباء والانشغال بذكرها والاكتفاء بها عن الجد والعمل، ولا شك أن صاحب همة عالية مغمور النسب أفضل من صاحب نسب دنيء النفس.

فالذين يأخذون هذا الجانب (النسب لا أهمية له) يتركون الجانب الآخر، وهو أنه في مجرى العادات فإن كرم الأعمام والأخوال مظنة الفضائل فإنه لا يكون النخل من الحنظل ولا العكس.

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

فلا تعارض بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وبين السؤال عن معادن الناس وقوله ﷺ: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**». وهذا كما في الفرد كذلك في الشعوب والقبائل، فبعض الشعوب لها خصائص معينة وفيها ميزات يجب أن يستفاد منها، دون إحياء لنعرة عنصرية أو قومية ضيقة.

ومن أمثلة الوقوع في النظرة الأحادية أُناس يظنون أنه بإصلاح شعبة من شعب العلوم أو الدعوة تنصلح الأمور كلها، فمن يعتقد أنه بتحقيق المخطوطات وتصفية

التراث سيحل المشكلة فهو مخطئ، ومن يظن أنه بإصلاح الوعظ والخطب وتبليغ الناس بشكل عام سيحل المشكلة فهو مخطئ، وقل مثل ذلك فيمن يرى أنه بتأليف الكتب وحدها وإلقاء المحاضرات والدروس فهذه كلها وسائل للهدف المنشود، وهناك وسائل أخرى غيرها، وكل واحدة بمفردها لا تأتي بالحل، فلا بد من الشمولية ليس في التنظير فحسب ولكن في التطبيق والعمل. وإذا اجتهد مسلم في جانب من هذه الجوانب وأتقنه وتفرغ له فلا بأس، ولكن عليه أن يعلم بأنه يقوم بجزء وأن إخوة له يقومون بسد باقي الثغرات، فيتعاونون كلهم ويكمل بعضهم بعضاً، فإن هذا الدين لا ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه.

* * *

الاستبصار عند الفتن

عندما كتب الإمام أبو المعالي الجويني كتابه في السياسة الشرعية المسمى (غياث الأمم في التياث الظلم) أراد أن يقول: إنه عندما يحزب المسلمين أمرٌ، وناتي الفتن من كل مكان تشوِّش على المسلم، فلا يدري وجه الحق ولا أين يتجه، ويصبح الحليم حيران، فالمعوَّل عليه عندئذ هم العلماء الذي يُبَصِّرون الناس بالحقائق ويبينون لهم الصواب؛ لأنهم أدرى الناس بمواقع الفتن، وكيفية المخرج منها.

وذلك لما فقهوا واستأنسوا من حديث رسول الله ﷺ ولما يعلمون من الترجيح بين الصالح والأصلح، والفاسد والأشد فساداً، ويعلمون قاعدة دفع الضرر، ورفع الحرج، ومثل هذا الصنف من العلماء يجب أن يكون على علم وفقه دقيق بالواقع، كما هو على علم واسع بالقواعد الشرعية، وكيف تطبق على أرض الواقع.

إن الملاذ الذي يلجأ إليه العوام هم العلماء والدعاة، فهم المتَّبعون، ولا يجوز أبداً أن يكونوا هم التابعين يتحسسون آراء الشارع وتوجهات الناس، فيؤيدون هذا الاتجاه أو ذاك إرضاء لهم ومسايرة لعواطفهم الفائرة، وحتى لا تحترق أوراقهم.

هناك بعض أئمة المساجد من يعلم أن ذاك الأمر بدعة ولكنه لا يستطيع مخالفة عوام المسجد! وكذلك نجدهم في الأمور الكبيرة التي تهجم على المسلمين فلا يدرون أين المذهب، وتتفرق بهم السبل، هذا الصنف ممن يتصدر للزعامة، ويداري ويجامل على حساب الحق، فهو مقود لا قائد؛ وكان الأوْلى به أن يصدع بالحق في وقت يكون الناس في أشد الحاجة إلى العلماء الذين لا يجاملون ولا يداهنون.

كان الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان يسأل رسول الله ﷺ، عن الشر والفتن مخافة أن يقع فيها، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأله ويستشيره في

موضوع الفتن، فهل يتبصر الدعاة طريقهم عندما تشتبه الأمور، ثم يقومون بتبصير الناس حتى لو أدى ذلك إلى معارضتهم واستغرابهم؟ فإن هذه مهمتهم، وهذه هي الأمانة التي نيطت في أعناقهم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾.

* * *

هندسة العلاقات الاجتماعية

من أشد الأمور فتكاً بالدعوة أن تصاب من الداخل، سواء بضعف الصف أو بتقطع شبكة العلاقات الاجتماعية فيما بين أفرادها، كالتدابر والتحاسد والتغالب على المناصب، وقد تكون هذه الأمور واضحة لا يقع فيها كثير من المخلصين، ولكن هناك أمور أخفى من ذلك تستحق التأمل والوقوف عندها طويلاً؛ ذلك عندما يكون الوعي الاجتماعي ضعيفاً، ولا نعلم كيف نتحاور، كيف يرد بعضنا على بعض، كيف يحترم الكبير، كيف يمكن تأجيل موضوع إذا استغلق حتى لا يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، كيفية المعاتبة والنصح.. الخ.

وقد يكون السبب عدم اهتمامنا بهذه النواحي أصلاً؛ لأن الاهتمام منصبٌّ على العلم والفكر، مع أن قضية العلاقات الأخوية بحاجة إلى هندسة خاصة، نحتاج إلى معرفة النفسيات والطباع، ومعاملة كل أخ حسب ما يناسبه، فلا نستطيع أن نطبع البشر بطابع واحد، أو نصبَّهم في قوالب جامدة، فالرجال أنواع، فهناك البسيط المنفتح، وهناك الانطوائي والاجتماعي، ومن يحب العزلة، والجريء والخجول.. ورسول الله ﷺ، هو القدوة في ذلك، كيف كان يعامل أصحابه مع اختلاف طبائعهم وأمزجتهم، كان أبو بكر هيناً ليناً وكان عمر شديداً، وعثمان حَيِيًّا، ويبدو أن شخصية علي لم تفهم من بعض الصحابة فقد جاء في السيرة أن الرسول ﷺ، «سأل الزبير بن العوام عن حبه لعلي فقال الزبير: كيف لا أحبه وهو ابن خالي وعلى ديني؟ فقال الرسول: «ستقاتله وأنت له ظالم» وأظن أن الرسول ﷺ أراد أن ينبه الزبير وغيره إلى أن شخصية علي قد تفهم على غير مرادها.

ويبدو أن الزبير رضي الله عنه-نسي هذا الحديث، فعندما ذكَّره به علي في معركة الجمل تذكر وترك القتال فوراً، إن رسول الله ﷺ كان يعرف نفسية علي التي

أخطأ فهمها بعض الصحابة، والآن تجد الأخ يظن ويعتقد أن في أخيه صفة غير محمودة، ويعامله على هذا الأساس لسنوات وأخوه لا يعلم بهذا، ولا يحاول أن يسأله أو يستفسر منه حتى يتأكد، هل هذه الصفة فيه؟ فيقع في الظلم، ثم قد يتبين له الحق ولكن بعد أن تصاب العلاقات الأخوية بالشلل.

إنها مصيبة أن يحدث هذا مع حُسن النوايا، وذلك كله بسبب الاطلاع النظري والعيش مع الكتب دون معرفة الواقع والتعامل معه، فقد يكون الرجل صامتاً أو مداعباً ممازحاً، فيخوض الناس فيه وهو لا يدري. لماذا لا نستفيد من السيرة النبوية، ولماذا لا نفكر في واقعنا ونحاول التعرف على أسباب الخلل وهي كثيرة مع الأسف؟

* * *

أمراض القلوب

عندما تجد خللاً في الدعوة، وبطءاً في السير، ففتش عن القلب، فأمراضه أشد من أمراض الأبدان، كما أن اكتشافه أخفى، ويحتاج إلى خبير في ذلك، وليس هناك وصف أدق لمكانة القلب من وصف الرسول ﷺ حين يقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

ومن أمراض القلب التي تفسد على المرء دينه ودنياه مرض العُجب، وهو ناشئ عن الكبر؛ لأن المعجَب بنفسه لا يزال يزداد إعجاباً وينفخ الشيطان فيه حتى يزدري الكبار من العلماء والدعاة، وهو وإن حاول إخفاء هذا الإعجاب، لكنه يظهر على فلتات لسانه أو على تصرفاته.

والمؤمن يعرف نفسه، فيبادر إلى علاج ما بها فوراً قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء.

ولعله من المناسب أن أنقل هنا كلاماً لأحد كبار علماء الإسلام، يتحدث فيه عن نفسه بصراحة وأنه كان فيها عيوب وقد عالجها وبرئتَ بإذن الله، يقول ابن حزم رحمه الله:

كانت فيّ عيوب، فلم أزل بالرياضة (مجاهدة النفس) واطلاعي على ما قال الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين، في الأخلاق وآداب النفس أعاني مداواتها، حتى أعان الله» عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه. وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الإقرار بها (العيوب)، ليتعظ بذلك متعظ إن شاء الله.

فمنها: كلف في الرضاء[1]، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني، وأعجزني ذلك في الرضا[2]. وكأني سامحت نفسي في ذلك.

ومنها: عُجْبٌ شديد، فناظَرَ عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع.

ومنها: محبة في بعد الصيت (حب الشهرة) والغلبة، فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي[3].

رحم الله أبا محمد، ولا شك أن أول درجات المعالجة ورياضة النفس هو الاعتراف بالنقص، وقد راضَ نفسه وألجمها، وأما وصفه للدواء فيقول:

«من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه، فإن أعجب بفضائله، فليفتش عما فيه من الأخلاق الدنية، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أنه مصيبه للأبد، وأنه أتم الناس نقصاً؛ لأن العاقل من ميّز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، فإن أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها، وإن أعجبت بخيرك فتفكر في معاصيك وتقصيرك، وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله...»[4].

---

(١) استرضاء الأصدقاء والإخوان حتى تبقى المودة ولو على حساب الكرامة الشخصية، كما يفهم من كلام ابن حزم.

(٢) أي عجز عن معالجة هذا العيب.

(٣) رسائل ابن حزم، الجزء الأول، ص ٢٥٢.

(٤) المصدر السابق ٢٨٧.

دعوة عامة

من الأخطاء التي وقعت فيها الدعوة الإسلامية في العصر الحديث التركيز على المدن من جهة وعلى الشباب المتعلم من جهة أخرى، ولا نقول إهمال الريف وجماهير الأمة بشكل عام، ولكنه شبه إهمال، والحجة في هذا أن المدن فيها الجامعات والمدارس الثانوية وهي بؤر الشباب المتعلم.

لا جدال في أهمية الشباب المتعلم، ولكن هل هذا كاف وحده للتغيير المنشود؟ وهل يقع التغيير دون التفاف الجماهير حول الدعاة والعلماء الذين يبصرون الناس بدينهم ويقودونهم إلى الغاية المطلوبة؟

إن طاقات الأمة ليست محصورة بفئة معينة، فقد يتفوق من هو صاحب فطرة سليمة وحب للدين على صاحب دراسات وكتب.

وعندما وضع الرسول ﷺ العرب في الطريق الصحيح تفجرت طاقاتهم وهم أمة أمية؛ ونشاهد الآن في أوروبا من يصل إلى الوزارة بل إلى رئاسة الوزراء ممن لم يدخل الجامعة قط، ولكنها الخبرة والتجربة والذكاء.

كنت في زيارة قريبة لبلد عربي، وصلينا مع بعض الزملاء في مسجد قرية من قراه، كانت وجوه الناس تدل على الطيبة وأصالة المعدن، لكن وفي الوقت نفسه كانت تدل على أنه لا يأتيهم أحد يعلمهم أمور دينهم، ويصبح مرشدهم، ويستفتونه في كل صغيرة وكبيرة، ويطيعون أوامر الشرع من خلال توجيهاته، وتذكرت أن بعض القرى في بلد عربي آخر لا تبعد عن العاصمة إلا أميالاً وأهلها من أجهل الناس، وكان الدعاة وطلبة العلم في هذه العاصمة لا يكلفون أنفسهم عناء الذهاب إليهم للدعوة، كما تذكرت ما حدثني به أحد الإخوة الأفاضل وكان

يومها طالباً يدرس في القاهرة عندما ضمه مجلس مع أصحاب الاهتمام بالدعوة وشؤونها، فسألهم عن هذه القضية وهل وقعت الدعوة في هذا الخطأ فاهتمت بالمتعلمين من أهل المدن بشكل خاص، فأجاب أحدهم: نعم؛ لأن المدن فيها الجامعات والمدارس فقال لهم: وما ذنب الريف وباقي جماهير الناس؟

لقد تبين مع الأيام أن الدعوة إن لم يلتف حولها الناس جميعهم، وتصبح قوة يهابونها، فلا تستطيع أن تحقق أهدافها؛ لأن أي ظالم يمكن أن يدعي أمام الشعب أن هؤلاء الشباب متهورون، متطرفون، معزولون في بعض الزوايا الخاصة إلى آخر قائمة الاتهامات المعروفة، ولكنه لا يستطيع أن يستغفل الناس ويقول: هؤلاء الدعاة والعلماء والتجار والصغار والكبار والنساء، كل هؤلاء يتسترون بالدين.

إن العلماء والدعاة الذين يتكلمون بالحق وبه يعدلون هم الذين تثق بهم الأمة، وهم المؤهلون للتغيير.

* * *

الشجاعة المفقودة

عندما دعت جامعة هارفارد الأمريكية الكاتب الروسي (سولجنتسين) الهارب من جحيم الشيوعية ليتكلم من منبرها، لخص هذا الكاتب الأزمة التي يعاني منها الإنسان في الغرب بأنها (زوال البأس) وخصوصاً في الطبقة الحاكمة وعند نخبة المفكرين، وتابع يقول: «يوجد أفراد لهم شجاعة وبأس ولكنهم لا يلعبون أي دور مسؤول في الحياة السياسية، والتاريخ يعلمنا أن الهبوط في البأس مؤشر على نهاية الدول». (الحياة ١/١٢/١٩٩٠م).

لا أدري هل قرأ (سولجنتسين) لابن خلدون - ولا أظنه - ولكن من عجيب الاتفاق أن ابن خلدون ركز كثيراً على هذا المعنى، وأن الاستبداد والظلم ومعاناة الناس للحكم يزيل البأس عنهم، ويتحولون إلى شخصيات ضعيفة فيها كذب ومكر وتملق، وعندئذ فلا خير فيهم، فلا هم يستطيعون المطالبة بشيء قوي، ولا المدافعة إذا طالبهم أحد.

إن كلام الكاتب الروسي يدل على دقة ملاحظة، وعمق في فهم المجتمع الغربي، فكثرة الرفاهية أنتجت أجيالاً، حتى على مستوى السياسة والفكر لا تملك الشجاعة في اتخاذ القرار أو لا تملك الشجاعة بشكل عام.

ولكن ما بالنا نحن؟! هل نعاني من قلة البأس، وقلة الرجال الذين يملكون الشجاعة للجهر بالحق، أم أن هذا داء عام، فالأجيال الحاضرة غير الأجيال السابقة؛ الواقع أننا نعاني من هذه الطامة، وإذا كانت الرفاهية أو (الحضارة) بلغة ابن خلدون هي سبب هذه الظاهرة في الغرب؛ فالسبب عندنا هو عقم التربية في المنزل والمدرسة والعيش في أجواء الظلم والقهر، فهذا مفسد للبأس ذاهب بالمنعة.

كيف نعيد هذا (البأس) ونحييه في الأمة؟ إن مثل هذا لا يُعطى كجرعة الدواء، ولكن التربية الطويلة على الاستقلالية، وخشونة العيش، والجهاد في سبيل الله، كلها تساعد على تربية الشخصية التي تعتد بنفسها وما تملك من دين وخلق، والمحاضن الطبيعية هي المنزل والمدرسة، والعيش في أجواء إسلامية نظيفة، يتربى الفرد فيها على الاحترام المتبادل وعلى العطف والتقدير.

* * *

وضوح الأهداف

إذا أردت لدعوتك أن تكون قوية مؤثرة تجمع عليها الناس يؤيدونها ويناصرونها فعليك أن تكون واضحاً في عرضها، واضحاً في عرض أهدافها، اذكر الحقيقة التي تؤمن بها ناصعة وبصورة حاسمة، أما الغمغمة واتباع الطرق الملتوية فهذا سيبعد الطريق ولا يؤدي إلى الغرض المطلوب، ومعنى هذا أن أفراد الدعوة أنفسهم يجب أن يكونوا متشبعين بفهمها، وفهم أهدافها ووسائلها، وإذا لم يكونوا كذلك فهناك التشويش والخلط بين المراحل الأولى والمراحل الأخيرة، الذي يؤدي إلى التعثر والتخبط.

لقد كانت الأهداف المرحلية واضحة تماماً في السيرة النبوية، كانت دعوته ﷺ مركزة وواضحة في البداية، دعوة الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده، وترك كل ما يعبد من دون الله من أصنام وطواغيت وأهواء وشهوات، ثم انتقل إلى مرحلة البحث عن مكان آمن للدعوة وأهلها، وأن تكون منطلقاً للتمكين في الأرض.

فيسَّرَ اللهُ له أهل يثرب ودخلوا في دين الله وانتقلت الدعوة إلى الدولة، ثم انتقلت الدولة من مرحلة الجهاد الدفاعي إلى مرحلة الجهاد حتى يكون الدين كله لله.

إن هذا الوضوح والإصرار عليه جعل بعض العرب يعجبون بالدعوة وصاحبها، فإن الإصرار على الحق والدفاع عنه لا بد أن يوقظ الناس، وسيقولون لو لم يكن هذا الشيء حقاً لما دافع عنه الناس بهذه التضحية.

وهذا الإصرار يتلوه النجاح، وهذا أيضاً من أسباب إقبال الناس عليه، فإن الدعوة الحق لا بد أن تنجح ولو في بعض المراحل أو بعض الأحيان ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ

عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أما إخفاقها مرة بعد مرة فهذا دليل على أن أفرادها لم يميزوا بين المقصد والوسيلة، فيتسرعون حيث البطء، أو يبطئون حيث يجب الاندفاع.

وفي هذا العصر وُجِدَ زعماء من غير المسلمين وضعوا أهدافاً واضحة، واستخدموا وسائل واضحة، وقد وصلوا إلى كثير مما كانوا يؤمِّلون؛ يقول أحد هؤلاء الزعماء:

«لا يمكن لحزب سياسي أن يبقى على المسرح ويحقق النجاح إلا إذا كانت لديه أفكار ومعتقدات صلبة وخطة عمل واضحة» ونحن نقول أيضاً لا بد للعمل الإسلامي من خطة عمل واضحة.

* * *

إنه أمر الله

كنا نقول في السنوات السابقة: إن المسلمين لا ينقصهم الإخلاص، وإنما جاء الضعف والتقصير من جانب قلة الصواب ومعرفة سنن الله في التغيير، وهذا الكلام - بمجمله ما زال صحيحاً، ولكن عند التدقيق سوف نجد أن الإخلاص أيضاً تشوبه شوائب، ويحول دونه حوائل من أعظمها حب الرئاسة، هذا الداء العضال الذي أهلك الناس قديماً وحديثاً، حتى قيل إنه آخر داء يخرج من قلوب العلماء، فكيف بالدهماء وأصحاب الأهواء و (مجانين الزعامة)؟!

وهذا الداء وإن كان غريزة في جميع البشر، إلا أنه قد يكون أظهر وأوضح في بعض الشعوب، والعرب حظهم وافر منه، إلا إذا هذبهم الإسلام وردهم إلى الاعتدال والجادة المستقيمة، وقد فعل ذلك في الرعيل الأول فظهر أمثال أبي عبيدة ابن الجراح أمين الأمة، الذي لا يهمه إن كان أميراً أو مأموراً، وقد مدح الرسول ﷺ ذاك المؤمن في قوله: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»[1] ولذلك قال العلماء: (ما صد عن الله مثل طلب الرفعة، ولا يفلح من شُمَّت رائحة الرياسة منه).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطي من هذه الدنيا المؤمن والكافر؛ وذلك لهوانها ومنزلتها عنده، ولكنه سبحانه أغير من أن يتم أمره بالتمكين لهذا الدين في الأرض على يد أناس عندهم شوب في الإخلاص، ويحبون الرئاسة والاستعلاء في الأرض، فكيف إذا كانوا مشعبذين يتخذون الدين مطية للدنيا، يبيعون دينهم بعرض قليل، ويسخِّرون كل شيء لأهوائهم ومطامعهم؛ فهؤلاء أبعد وأبعد عن

التمكين؛ لأنه أمر الله ولا يعطيه إلا لمن أحب.

والعجيب أن زعماء الغرب عندما تنتهي مدة رئاستهم يرجعون إلى مكانهم الأول، ويعيشون مع المجتمع كأفراد عاديين، وربما رجع المدرس إلى عمله والتاجر إلى تجارته، ولا يبحثون عن الرئاسة مرة ثانية، فهل يكون هؤلاء أقل حباً للرئاسة منا وذلك لما اعتادوه من النظام الذي ارتضوه لأنفسهم، ونحن عندنا كتاب ربنا يؤدبنا ويهذبنا؟!

أيكون لغير المسلمين منظمات ومؤسسات استطاعوا من خلالها التعايش بينهم، ولم تنهدم بسبب تسلط واحد منهم، ولا يقوم للمسلمين مثل ذلك، ولا يجتمعون على صيغة تحل فيها عُقد حب الرئاسة، ويتنازل المسلم لأخيه قليلاً حتى تستمر آصرة التعاون؟

نرجو أن يكون لهم مثل ذلك وخاصة في مثل هذه الأيام.

* * *

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد.

حسداً من عند أنفسهم

من الشبه التي يرددها أعداء الإسلام كثيراً، بل قد تنقدح في نفس المسلم أحياناً، هي شبهة التفرق وشدة الخصام والجدال، يقولون: إذا كان الإسلام هو الحق الذي لا ريب فيه فلماذا هذا التشتت وهذه الكثرة من الفرق؟ والمسلم الضعيف يقول: لماذا لا نجتمع ولو على أي شكل من الأشكال وندع هذا الخصام والأخذ والرد ونستريح من هذه المشاكل؟

وللرد على هذه الشبه نقول: لا بد أن يعلم المسلم أن الشيء الثمين والتحفة النادرة تغري بالحسد والعداوة فكيف إذا كان هذا الشيء سلعة معنوية وليست مادة؟ والإسلام في غاية الحسن والكمال، فعندئذ تنبعث النفوس التي ملئت بالحقد على الإيقاع به من الداخل، والتلبيس على المسلمين ومحاولة التحريف والتبديل حتى لا يبقى جوهر الإسلام صافياً.

لقد شَرِقَ اليهود والنصارى والفرس بحمل العرب لهذا الدين ونشره في الآفاق، وهيمنته على سائر الملل والنحل، وهو من الوضوح والقوة الداخلية فيه أن نوره يبهر الأبصار، عندئذ كثرت سهامهم إليه وكثرت المؤامرات التي تريد اقتلاعه، وجاس عبد الله بن سبأ وأتباعه خلال الديار، وانتشرت الباطنية تتستر بالإسلام، وتأثر بهم أصحاب الأهواء أو ضعاف العقول فكثرت الفرق، وإذا كان الإسلام قد أزاح عروشاً سياسية فإنه أزاح أيضاً رئاسات دينية من الكهنة والأحبار، خدعوا الشعوب وأكلوا أموال الناس بالباطل، وهؤلاء حقدهم أشد، وعداوتهم أقوى، كل هؤلاء قاموا بإثارة الشبهات فتلقفها ضعاف الإيمان فكثر الخلط، وأما المسلمون الضعاف الذين لا يدفعون الشبهات بالإيمان القوي والثقة بهذا الدين أو النظر إلى مواقع القدر الشرعي والكوني؛ هؤلاء الذين يتمنون في داخل أنفسهم أن لو يجتمع

المسلمون تحت اسم (الإسلام)، ولو كان أحدهم يحمل من البدع الكبيرة والصغيرة ما يصل إلى درجة الكفر، هؤلاء نقول لهم كما قال أحد العلماء:

«إن الحق لا ينقلب باطلاً لاختلاف الناس فيه، ولا الباطل يصير حقاً لاتفاق الناس عليه، وسلامة الإنسان عن الخطأ ليس بمطموع فيه، ولكن الطمع في أن يكثر صوابه».

* * *

من سنن الاجتماع والجماعات

عندما يبرز عالم أو داعية أو زعيم، ويشتهر أمره، تحوطه عادة جموع كثيرة من الناس: منهم المخلصون وهمهم طلب العلم أو المشورة أو المساعدة في أمر الدعوة، ومنهم المتملقون بالتقرب منه والذين يتظاهرون بالسؤال وحب الدعوة، ومنهم الفضوليون الذين يحبون الشهرة بالسير في ركاب هذا أو ذاك، وأخلاط من الناس تستمع ولكن الفائدة المرجوة قليلة.

وفي غمرة حرص الداعية أو القائد على نشر هذا الخير وتكثير سواد المسلمين قد يبتعد عن المقربين المخلصين من غير تعمد منه لذلك، وهذا مما يكسر خواطرهم، ويضعف الفائدة المرجوة من التجمع والتناصر، وفي العادة فإن المخلصين يبتعدون عن التزلف ويتحاشون القرب الدائم، فإذا غلبهم العامة أو المتملقون فقد وقعت المصيبة.

وقد كان الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف مدركاً لهذه الناحية عارفاً بأمور الناس والزعامة عندما نصح عمر بن الخطاب رضي الله عنه بألاَّ يتكلم في (منى) أثناء الحج عن أمور تخص الخلافة والاستخلاف، وكان عمر رضي الله عنه قد سمع قولة قائل: «لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً» يظن أن البيعة بهذه السهولة، يبايع من يشاء دون مشورة لأهل الحل والعقد، وكأنه ظن أن خلافة أبي بكر رضي الله عنه كانت هكذا، فغضب عمر ثم قال: «إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم، قال عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم فإنهنم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى ألا يعوها، وألا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكناً» واستجاب عمر رضي الله عنه لنصيحة

عبد الرحمن بن عوف وقام هذا المقام في المدينة.

ونقول للدعاة الذين يشار إليهم بالبنان: لا يجوز أن يغلب المتملقون والمتطفلون على أوقاتكم، ويجب أن يُقَرَّب المخلصون من تلامذتكم، وهذا من آداب القيادة وسنن الاجتماع كما قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقول الشيخ رشيد رضيا في تفسير هذه الآية: «هذا مبني على سنن الاجتماع في الزعامة والعصبية وتأليف الجماعات، وكون ثباتها وظفرها رهناً بإيمان الجماعة التي تألفت لأجله، وولاية بعضهم لبعض بصفة يكون فيها الزعيم خير قدوة للأفراد بتفضيله أدنى المؤمنين فيهم على أعظم الكبراء من خصومهم[1] فهل يعي هذه النصيحة الذين يتصدون للناس ولا ينسون الدعاة الصادقين الذين لا يتزلفون للزعيم؟

* * *

(١) المنار ١٢/ ٢٤١.

من لهذه المنابر؟

رغم الأهمية البالغة لخطبة الجمعة والتي يحضرها المسلمون أسبوعياً، في أعداد لا تجتمع في غير هذه المناسبة، بل يتمنى أعداء الإسلام جمع عشر مثل هذا العدد لينفثوا أباطيلهم، رغم هذا فإنها لم تُعْطَ العناية الكافية من الدعاة: ما هو الأسلوب الأمثل في مخاطبة الناس؟ ما هي المواضيع المناسبة؟ وكيف نرقى بالناس إلى فهم دينهم فهماً واعياً؟ كيف نقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً؟ كيف نعالج مشكلات حياتهم؟ كل هذا يجب أن يُبحث ويُكتب فيه، فإن غالب الخطباء إما أن يتكلم بعواطف فائرة دون تبليغ فكرة أو معالجة مشكلة معينة، أو تكون خطبة هادئة جداً تصل إلى درجة البرود، ومع ذلك فإن هذا الصنف يفتقر غالباً إلى المادة العلمية القوية.

ومن الظواهر الجلية في الدعوة الإسلامية في هذا العصر أن الخطباء الذين يملكون الحنجرة القوية والكلمات الطنانة الفضفاضة، استطاعوا صياغة شخصيات كثير من أصحاب النوايا الطيبة في العمل للإسلام، وكثير من الشباب المتحمس للدعوة. فأصبحت جموع كثيرة لا تحب التفكير الهادئ المتزن، ولا تحب التعمق في فهم المشاكل والصعوبات، ويكفيها أن تعيش على أحلام الخطب الحماسية التي تشبع رغبتها.

نحن لا ننقص من قدر العاطفة وأهمية حشد الجماهير؛ فقد وُصِف الرسول ﷺ في خطبه بأنه منذر جيش يقول: «صبَّحكم مسَّاكم» فمن الأفضل الجمع بين هذه الحماسة وبين تقديم العلم النافع والفكرة الصحيحة، حتى يجتمع لنا رأي عام بين صفوف المسلمين يؤيد الدعوة ويحبها ويدافع عنها. نريد الخطيب المفكر والخطيب المؤثر، نريد الذي يجتمع عنده أصناف الناس من متعلم وعالم وعامي،

والكل يرجع وقد استفاد من موعظة قلبية أو فكرة هادفة.

أليس عجيباً أنك إذا زرت مدينة عربية لا تجد في كل المدينة إلا الخطيب أو الخطيبين، ممن يجتمع عليه الناس؛ وتجمع خطبه بين العلم والعاطفة والتأثير القوي؟

هلاً اعتبرنا بقول أحد زعماء الأحزاب التي تحارب الإسلام في بلادنا: «آه لو عندي مثل هذه المنابر»؟!

* * *

الحرص على الدعوة

هل نحن حريصون على الدعوة ونجاحها، وأن تكون هي الأقوى، وهي المهيمنة. إذا كان الأمر كذلك؛ فهل هناك حرص آخر يوازي هذا الحرص ويزاحمه ويدافعه، وهو الحرص على المستقبل!! مستقبل العمل الوظيفي، مستقبل الأولاد، تأمين المسكن المريح، والمركب المريح، والوطن المريح.

إن واقعنا يدل على هذه المزاحمة والمدافعة إلا في القليل النادر. فالدعوة لا تشغل البال ولا تقيم الداعية وتقعده، يفكر فيها ليل نهار، كيف تنجح، كيف تتقدم؟ وما هي أسباب الإخفاق، وما هي أسباب التأخر والضعف؟

إن الدعاة يعلمون أن وحدة الصف ووحدة المنهج من أهم أسباب قوة الدعوة، وأن تجميع الطاقات الفعالة المنتجة من أسباب قوة الدعوة، فلماذا لا يفعلون؟ وهم يعلمون أنه ليس للدعوة الآن كلمة نافذة وهيبة مرهوبة، وهيئة علماء يُسمع ويُستجاب لها، فلماذا لا يسعون لتحقيق هذا؟

إن أشد ما يتعجب له المرء حرص أصحاب البدع وأصحاب الباطل على نجاح دعوتهم، فتراهم يجوبون البلاد طولاً وعرضاً لنشر بدعهم ومبادئهم، يقول أحد دعاتهم: «وددت أن لو ظهر هذا الأمر يوماً واحداً من أول النهار إلى آخره فلا آسف على الحياة بعده».

وما زلت أذكر من قراءاتي أن زعيم المعتزلة واصل بن عطاء قرر إرسال أحد دعاته المقربين إلى بلدة بعيدة، وكان هذا الداعية تاجراً كبيراً فحاول مع واصل أن يرسل غيره ويدفع مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال، ولكن واصل رفض وأصر على ذهابه، فما كان منه إلا أن استجاب!

والآن نشاهد الطبيب المسلم لا يرضى ـ إلا من رحم ربك ـ أن يبدأ عمله في قرية من القرى: فيساعد أهلها ويدعوهم إلى الالتزام بالإسلام. فكيف إذا قيل له: اذهبْ إلى جبال أفغانستان أو إلى غابات آسيا وأفريقيا؛ أو ارحل مع البدو حيث رحلوا؟! ونرى الشباب المتخرج من الجامعات الإسلامية يفضل العمل ولو بوظيفة صغيرة في مدينة من المدن على أن يذهب إلى بلاد بعيدة هم بأشد الحاجة إلى أمثاله لتفشي الجهل أو البعد عن الإسلام كلية. فالمشكلة إذن هي أن الكل يريد الاستقرار في المدن، بل وفي العاصمة، فمَنْ للقبائل ومَنْ للقرى ومَنْ لمسلمي العالم؟

ونعود للسؤال الذي بدأنا به هذه الخاطرة: هل نحن ـ حقاً ـ حريصون على الدعوة ونجاحها؟

* * *

أمراض القلوب (٢)

من يتأمل النفس البشرية ويسبر غورها فسيجد العجب العجاب من مداخلها ومساربها، فهي إذا كرهت تبعد صورة من تكره بألف حيلة وتشوهها بألف لون، وإذا أحبت فمثل ذلك، وحقها أن تلجم وتفطم عن مثل هذه المداخل.

حدثني أحد الإخوة عن لقاء عابر مع صديق له من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، قال: فوجئت بهذا الصديق يغمز ويلمز بأحد الدعاة الذي نحسبهم من أهل العلم والصدق ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ وكان بهذا الغمز يستعمل التلميح دون التصريح. يقول محدثي: وتعجبت من تلميحاته وكرهه لهذا الداعية، وهو لم يلتق به من قريب ولم يقرأ له. فقلت لهذا الأخ: لا تعجب، إنه الحسد والمعاصرة، أليس هذان الاثنان من بلد واحد ومن منطقة واحدة؟ قال: بلى. قلت: إذن سأسمعك ما كتبه أبو بكر الرازي في هذا الموضوع ـ والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها ـ:

«إننا نرى الرجل الغريب حاكماً في بلد ما، متحكماً في أهله، ومع ذلك فلا يكادون يحسون نحوه بكراهية؛ أما أن يحكمهم رجل من أهلهم فالأغلب أن تنصبَّ عليه الكراهية، مع أنه قد يكون أرأف بهم من الحاكم الغريب، وسر ذلك هو محبة الإنسان لنفسه، مما يجعله تواقاً إلى أن يكون سباقاً لسواه من أبناء قومه، فإذا رأى الناس أن من كان بالأمس منهم قد أصبح اليوم سابقاً لهم، مقدَّماً عليهم، اغتمّوا لذلك وصعب واشتد عليهم سبقه إياهم، أما المالك الغريب فمن أجل أنهم لم يشاهدوا حالته الأولى لا يتصورون قصورهم في كمال سبقه لهم وفضله عليهم، فيكون ذلك أقل لغمهم وأسفهم».

والرازي ضرب مثلاً للحاكم ونحن ننقل هذا المثل لما يقع الآن مع الدعاة والعلماء، فنجد الرجل صاحب العلم والفضل يتكلم فيه أقرانه أو أهل أهل بلده ما لا يتكلم فيه الآخرون، وما يقطع هذا المرض القلبي إلا أن يفكر المسلم ماذا يستفيد من هذا الحسد في الدنيا غير وباله في الآخرة؟ ويفكر في نفسه أن فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا حرج في المنافسة في الخير والمزيد من العلم، وربما استطاع أن يسد ثغرة في جانب من الجوانب لا يسدها أخوه المحسود!.

إننا نسمع هذه الأيام من يفرح بأخطاء أخيه ليجمعها ويؤلف فيها كتباً!! أهكذا أمر الإسلام أتباعه؟ أو هكذا تُضيّع الأوقات، وتهدر الطاقات ولا يتنبه الذي ينصّب نفسه داعية لأمراض قلبه وإحن صدره، ويعالجها بالدواء الشافي كما يعالج بدنه إن أصابه شيء، فيكون مرضياً عند الله وعند الناس؟

* * *

من لهذه المنابر (٢)

مرة ثانية نعود للحديث عن خطبة الجمعة، هذا المنبر الأسبوعي ذو الأهمية البالغة في توعية جماهير الأمة ورفع مستواها الإيماني والعلمي. لقد أهمل غالب الخطباء الإعداد الجيد وأهملوا معرفة ما يقال وما لا يقال، وما هي أوجه النقص عند من يصلي عنده، هل عندهم نقص في فهم العبودية التامة لله، أو نقص في التعاطف مع أمور المسلمين في العالم، أو غير ذلك؟ ويحاول سد هذا النقص.

قلما رأيت خطيباً في البلاد التي فشا فيها الجهال بتوحيد العبودية يتكلم عن هذا الجانب وبقوة ويقرع أسماع المصلين بالآيات القرآنية وبالأحاديث النبوية؛ ويفصل لهم أقوال العلماء الكبار في هذا الموضوع.

استمعت في الآونة الأخيرة إلى أحد الخطباء وكان يدعو الناس إلى الالتزام بالإسلام سلوكاً وأخلاقاً، وقال لهم في غمرة الحماسة: نحن ليس لنا دنيا، يئسنا من الحصول على شيء من الدنيا، أفلا يكون ديننا صحيحاً..؟!

تعجبت من هذا الفهم السقيم وكيف يلقي الكلام على عواهنه، وكأن الإسلام يفصل بين الدين والدنيا ولم يدر الأخ الخطيب أننا لا نستطيع الاحتفاظ بديننا على الوجه الأكمل إلا بإتقان بعض دنيانا، وهل يقبل الإنسان منك وعظاً وهو جائع، وهل يكون دين المسلم قوياً وهو يعاني القهر أمام الأعداء؟

لا يستشير الأخُ الخطيبُ إخوانَه في موضوع الخطبة، ولا يستشير أهلَ الرأي والحصافة من جمهور المصلين عنده، ولا يقرأ كثيراً في الموضوع الذي سيتكلم عنه؛ فكيف يؤثر في السامعين؟

إن بعض الموضوعات لا بد أن تطرح وترسخ في قلوب وعقول المصلين على

اختلاف طبقاتهم، وذلك بالحديث عنها لعدة خطب متوالية؛ مثل مفهوم العبودية لله، والاستسلام لنصوص الوحيين: القرآن والسنة، وتعظيم السنة، وتعظيم الصحابة واحترام الأجيال المفضلة، وبيان محاسن الإسلام وفضائله، وذكر سيرة الرسول ﷺ في سلمه وحربه، وإبداء الرأي الشرعي فيما يجد من أحداث، وبث روح الأخوة والتعاون، ونبذ الفرقة والخلاف.. إلى غير ذلك من الموضوعات التي ليس مجال تفصيلها في هذه الخاطرة، وإنما قصدنا الذي نريد الوصول إليه: هو استشعار المسؤولية الملقاة على عاتق العالم والداعية الذي يرقى المنابر ليتكلم باسم الإسلام وفي بيت من بيوت الله.

* * *

في النقد الذاتي

من تأملات ابن خلدون في طبيعة الاجتماع الإنساني أن بعض الشعوب عندما تجاور شعوباً أخرى فإنها تسرق من طباعها، وتتسرب إليها عاداتها وتقاليدها، ويضرب ابن خلدون مثلاً على ذلك أن بني إسرائيل عندما خرجوا من مصر وسكنوا بلاد الشام كانت هذه البلاد تعج بشتى القبائل والأقوام المختلفة المشارب والمذاهب، ومع طول المجاورة تأثر بنو إسرائيل بهذا التفرق، ودبّ فيهم الخلاف وضعفوا حتى جاءهم من أزالهم عن ملكهم.

هذه ملاحظة ذكية من مؤرخنا الاجتماعي تدل على تعمقه في دراسة أحوال المجتمعات أو التجمعات، والمتأمل لحال الدعوة الإسلامية في هذا العصر يجد مثل هذا التسرب قد دخل إليها من المحيط والبيئة التي تعيش فيها، سواء كانت بيئة الدول الوطنية أو الأحزاب، وبيئة المجتمع المتخلف حضاريًّا والذي تبرز فيه الدعوات الإقليمية أو القبلية، ففي الأحزاب والدول التي نعيش بين ظهرانيها يتسلق إلى المناصب المداهنون والمتملقون الذين يتقنون فن الكلام، ويبعد أصحاب الرأي الاستقلالي وأصحاب الشخصية القوية، وكأنهم يسيرون على القاعدة الاقتصادية (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة) ويقع أحياناً مثل هذا في صفوف الدعوة.

ومن سنن الزعيم السياسي أن يكون مَنْ دونه شخصاً ضعيفاً حتى يستطيع التصرف ولا يبرز أحد بجانبه، وتجد مثل هذا في الدعوات. وتمارس الدول ضغوطاً اقتصادية على أصحاب الفكر والدعوة، سواء كان ذلك بالمنع أو العطاء، وتعتبر هذا من المحافظة على كيانها، وتجد من بعض الفصائل الإسلامية من يفعل مثل ذلك، ومن الوزراء من يجعل وزارته مزرعة لأقاربه وأصدقائه وأهل بلده، ويقع مثل هذا أحياناً فيقرب أحدهم لصلة الصداقة أو القرابة، كل هذه السلبيات موجودة،

ولكنها داء خفي لا ينتبه له، وهو من عوامل فصم عرى الوحدة، وزرع الإحن والبغضاء، وإبعاد الكفاءات، فهل تعالج هذه الأمور قبل استفحالها وقبل أن تقضي على ما تبقى من حيوية الدعوة.

نحن لا ننكر أثر البيئة، ولكن المراجعة المستمرة للأخطاء وللأسباب المعيقة للتقدم، والتعمق في فهم بعض الظواهر السلبية؛ كل هذا كفيل بأن يخفف كثيراً من أثر البيئة. إن ابن خلدون يريد أن يقول: إن هذا من حتميات التجمع البشري، ولا أعتقد ذلك.

* * *

حتى لا نخادع أنفسنا

كانت القاعدة الأساسية التي سار عليها العلماء الربانيون من هذه الأمة في تعليم الناس وتربيتهم هي حملهم على الطريق الوسط، فلا غلو ولا تقصير، ولا تيئيس ولا طمع، ونريد تطبيع هذه القاعدة الآن في قضية ما يقال عن خوف الغرب من المسلمين ومن الصحوة الإسلامية، وأنه يحسب لها ألف حساب؛ وأن التحدي الكبير بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو الإسلام والمسلمون، ونعلن بهذا في صحفنا وخطبنا، فهل يصح في ا لتربية القويمة أن نميل بالناس إلى جانب الاطمئنان والركون إلى قوة الصحوة وخوف الغرب منها، وهل نحن أقوياء حقيقة أم أننا نخادع أنفسنا؟

إن واقع المسلمين الحالي من الضعف والتفريق والخراب الاقتصادي وتراجع القوة العسكرية، وصراع القبائل والعشائر ما يدل على أنه غير مخيف، ولكن إذا عرفنا كيف يفكر الغرب، وكيف يحتاط للمستقبل البعيد، ويستعد للأمور قبل أوانها، فالجواب: نعم، الغرب يخشى من الإسلام ومن المسلمين؛ لأنه يحذر أن تفاجئه الأحداث بشيء لم يكن يتوقعه، بنهوض سريع لم يُحسب له حساب، خاصة وأن الإسلام يزحف بشكل مستمر سواء في كسب أنصار جدد أم في عودة المسلمين إلى دينهم.

ولا نستبعد أن يضخم الغرب هذا الموضوع كي نفرح ونعيش أحلاماً سعيدة، وهو غير بعيد عن استعمال هذه الأساليب في مقارعة الخصوم، حتى يؤلب شعوبه، ويستنفر الطاقات وله في ذلك أحاييل شديدة الخبث، وما بالك بأقام دأبوا منذ ثلاثة قرون على استعمار الأرض ونهب خيراتها، وصدق من قال: إن الغرب تعمق في مسائل علم النفس كي يستخدمه في أغراضه الاستعمارية.

هذا الكلام ليس لغرس اليأس والإحباط في النفوس، وإنما لنعرف مواقع ضعفنا وقوتنا، وكيف نستكمل مواطن القوة، ومن أين يأتينا الخلل، وليس من الأساليب الحكيمة أن نُفرح الشباب المسلم بأننا قوة يُخشى بأسها ثم يتبين لهم بعدئذ ما يؤيد عكس هذا، بل نعطي أنفسنا الحجم الحقيقي، ونكون متفائلين بأن الإسلام هو الغالب بإذن الله، وسيبلغ أقطار الأرض، وهو التحدي الحضاري أمام الغرب فعلاً، ولا يوجد أمة أو شعب يملك منهجاً متكاملاً به يُعتز وبه يتميز مثل المسلمين، والغرب يكره أشد الكراهية من يتعالى عليه، ولكن هذا المنهج يحتاج إلى تطبيق على أرض الواقع.

* * *

عالم الاقتصاد

عندما آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في بداية تَكَوُّنِ الأمة المسلمة والدولة الإسلامية لم يكن رسول الله ﷺ يقرر مبدأً أخلاقيًّا أو اجتماعيًّا فحسب، بل حل مشكلة اقتصادية واقعية؛ فالمهاجرون الذين تركوا أموالهم وديارهم في سبيل الله لا بد أن يعيشوا عيشة كريمة وهم يؤسسون مجتمعاً وأمة، وإذا لم تحل مشكلتهم فماذا هم فاعلون؟ هل يضربون في الأرض يبحثون عن الرزق حتى يعولوا أنفسهم وأهليهم؟ وإذن لا يستطيعون المساهمة في تأسيس هذا البنيان العظيم.

فهذا الحل لا بد منه في مثل هذه الأحوال ليشعر الفرد المسلم أنه في حماية وطمأنينة من هذا الجانب، وأنه لن يُضيّع من إخوانه الذين سار معهم على درب الإيمان، وعندئذ سترتفع طاقته الإيمانية والعملية أضعافاً مضاعفة، فلا يصح ترك الفرد المسلم وحيداً في ميدان الصراع والكد والتعب في مرحلة تأسيس الدعوة؛ لأن ذلك يقلل كثيراً من فرص الإبداع والإنتاج.

وفي هذه الأيام العصيبة التي يرزخ تحت وطأتها غالب المسلمين في العالم، ويظهر الغرب قوته الاقتصادية التي يضغط بها على الشعوب والدول ليفرض شروطه المذلة، ويجعل الدول الأخرى دولاً استهلاكية تشتري كل ما ينتجه الغرب.

وتشبَّه بالغرب أصحاب الجاه والمال من الذين أُشرِبوا في قلوبهم كره الإسلام؛ فهم يستخدمون المال للضغط على المسلمين وإذلالهم؛ وهنا يحق لنا أن نتساءل: أين المسلمون من عالم الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي، عالم المال الذي يسخر لإحقاق الحق، لماذا لم يُقتحم حتى الآن؟ ولماذا يغلب على الذين اقتحموه الإخفاق

والخيبة؟ ومتى يصبح المسلم (إنساناً اقتصادياً)[1] يعرف قيمة المال الذي سماه الله سبحانه وتعالى في القرآن (خيراً)؟

وبما أن المسلم لا يحب أن يُتهم بالجشع والبخل والتكالب على الدنيا فهو يتهرب من أن يكون (اقتصاديًّا) وهذا هو الخطأ واللبس في فهم هذه الناحية المهمة في حياتنا وكأنه ينسى كيف كان بيت مال المسلمين في عهد عمر رضي الله عنه، وكيف كان يحاسب على النقير والقطمير، وكيف كان يهنأ[2] إبل الصدقة حفظاً لثروة الأمة.

إن المسلم الذي يفهم الإسلام في مراميه القريبة والبعيدة لا بد أن يكون (اقتصاديّاً)، والعربي عندما لا يتحضر بحضارة الإسلام سيعود إلى الإسراف والتبذير الذي يظن أنه كرم وهو ليس بذلك، وبعضه يصل إلى حب السمعة والرياء؛ والأمة المسلمة لا يجوز أن تكون فقيرة تعيش على صدقات أعدائها.

* * *

(١) لا نعني الادخار الشخصي أو التضييق والبخل في الإنفاق، وإنما حفظ المال بكل أنواعه وتسخيره للصالح العام.

(٢) يداويها ويطليها بالقار بنفسه.

عالم الاقتصاد (٢)

قال لي صاحبي: ما كتبته في الخاطرة السابقة عن علاقة المسلم بعالم الاقتصاد فيه عموم، ونحن بحاجة إلى الأمثلة التفصيلية، قلت: سأتكلم عن الحالة الفردية المبسطة جداً، وليس هنا مجال الكلام عن التخطيط الاقتصادي، أو أهمية الاقتصاد. حالة الفرد المسلم الذي يشعر بأهمية (المال) وكيف يساهم في التخفيف من ضغوط الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاستهلاكي المسلَّط على رؤوسنا.

ومن الأمثلة التفصيلية التي يعرفها ولا شك كثير من المسلمين ولكنها للذكرى، ولمزيد من إعطاء الأهمية لعالم الاقتصاد:

● لماذا لا يتعلم الشاب المسلم مهنة أو أكثر من المهن التي يحتاجها الإنسان بين الحين والآخر يتعلمها ولو من قبيل الهواية وليس لكسب الرزق من خلالها، فيستطيع إصلاح أمور منزله، أو مركوبه، أو شتى حوائجه كما كان يفعل رسول الله ﷺ فيصلح نعله ويرقع ثوبه. وقد منَّ الله سبحانه وتعالى على سيدنا داود بأن علَّمه ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، وفي المجتمع الأوروبي الآن قلَّ أن يخلو منزل من أدوات إصلاح المنزل: إصلاح الكهرباء، أو الجدران، أو الحديقة.

● لماذا لا نحرص على موضوع الاستثمار، الذي يفيد الفرد والمجموع، والاستثمار يأتي من تجمع (المال) ومن ثمَّ إدخاله في دورة الإنتاج الاقتصادي (زراعة وصناعة وتجارة) وتجمع المال قد يأتي من التوفير ولو كان قليلاً، ودورة الإنتاج هذه تخفف من البطالة التي ينتج عنها من المشاكل ما الله به عليم. إن الشاب المسلم الذي يجد نفسه عالة على أسرته أو أصدقائه ويجد من نفسه القوة والنشاط والفاعلية ثم لا يستطيع أن يعمل شيئاً، كل هذا سيؤثر في نفسيته بل وفي

طريقة تفكيره.

● يلاحظ أن كثيراً ممن يملك المال في مجتمعاتنا يميل إلى استثمارها في الأمور الاستهلاكية، فهو إما مستورد لحاجات صنعت في الخارج أو يقوم بالوساطة التجارية وهذا كله حباً في السهولة والربح السريع، وبعداً عن المشاريع التي تفيد المسلمين في الزراعة والصناعة.

● قد تجد المسلم المتدين ولكن زوجته تنفق أموالاً طائلة على الكماليات في المسكن والملبس وهو يوافقها ولا يجد حرجاً في ذلك، وقد لا يخطر في باله أن هذه الأمور مما يجب الاهتمام بها والتنبه لها، وأين هذا من صنع السيدات الفاضلات في مجتمعاتنا الإسلامية قبل مجيء عصر الاستهلاك، حين كانت المرأة المسلمة تدير المنزل بحسن تدبير، فلا إسراف ولا تقتير، بل وتخرّج أجيالاً تمرسوا على هذا التدبير.

هذه أمثلة بسيطة، والموضوع بحاجة إلى مزيد من الوضوح، وإني أجد نفسي لم أعبر تماماً عما أريده من (المسلم الاقتصادي)

* * *

أزمتنا الأخلاقية (١)

خلل كبير نعاني منه في حياتنا الإسلامية المعاصرة أيما معاناة، ذلك هو النقص في الأخلاق الأساسية التي يجب أن تتوافر في كل مسلم؛ لأنها إن ضعفت أو نقصت فلن تقوم للأمة قائمة. هذه الأخلاق كانت موجودة أو كثير منها عند العرب عندما جاءهم رسول الله ﷺ بالنبوة والهداية. كان خلق الوفاء والصدق والشجاعة والتذمم للصديق والجار شائعاً، وكان العربي يجد غضاضة في أن يوصم بالكذب أو الغدر، ولذلك لم يُتعب الرسول ﷺ نفسه في تأديب هؤلاء وتربيتهم على هذه الأخلاق والدعوة إلى ممارستها، فالإشارة منه لهذه الأخلاق كانت تكفي لأنها ارتبطت بالتوحيد الذي جاءهم به، وهو الذي كان ينقصهم فلما تمثلوا به وأصبحت العبودية تامة لله سبحانه؛ كملت هداية الفطرة وهداية الوحي فكانوا كما قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

وفي هذه الأيام ابتلي المسلمون وابتليت الدعوة بمن تجرد من هذه الأخلاق، فالكذب ـ وهو أسوأ الأخلاق الرديّة ـ يقع فيه هؤلاء سواء في أحاديثهم العادية أم في تجريح إخوانهم من الدعاة، ولا أدري بم يعللون هذه الفعلة الشنيعة، هل بمصلحة الدعوة؟! أما الحقيقة فهي أن معادنهم رخيصة، وليس عندهم أخلاق الفطرة؛ لأنها فسدت بسبب البيئة التي عاشوا فيها، ولا أخلاق الإسلام؛ لأنهم تربوا على الأنانية والحزبية الضيقة، ويتبع هذه الخصلة السيئة قلة الإنصاف في الحكم على الآخرين، فالتهم تكال كيلاً دون أدنى تحر للعدل والإنصاف، ويتناقل هذه التهم المغفلون والسذج دون أي تحرج أو تأثُّم، فكيف تستقيم حياتنا الإسلامية وفينا هذه الأخلاق، انظر إلى هذا الذي يقول عن إخوانه الذين يتصدون للظلم والقهر والإرهاب السافر، يقول عنهم في لقائه مع رئيس مجلس الدولة: «جئنا لتهدئة

الأوضاع والخروج من الأزمة التي سالت فيها الدماء، فأصبح المقتول لا يعرف لماذا قُتِل، والقاتل لا يعرف لماذا قَتَل؟».

أهكذا أيها الداعية؟! المقتول لا يعرف لماذا قتل؟ الذين يجاهدون الظلم ويدفعون عن أنفسهم العدوان لا يعرفون لماذا يجاهدون؟ هل هذه أخلاق رجال، هل الذي يشمت بما يفعل بإخوانه يملك الأخلاق الأساسية التي هي من مقومات نهضة الأمة، وكان قد أظهر شماتته في أحداث سبقت وأيد نزول الجيش لإنهاء ما سماه (الفتنة).

إنها مصيبة – واللهِ – أن يكون بعض من لا يتبنى الإسلام عنده من الجرأة والرجولة أكثر من هذا الذي يملك نفساً أنانية ولا يريد إلا التسلق على حساب مصائب إخوانه، ولذلك نقول: إن أزمتنا في بعض جوانبها أزمة أخلاقية.

* * *

أزمتنا الأخلاقية (٢)

كم هو مؤلم للنفس أن يشكو إليك أخ مسلم حال بعض المنتسبين للدعوة، فيذكر من جفائهم وبعدهم عن تطبيق ما يأمر به الإسلام من الرفق واللين والكلمة الطيبة، والسؤال عن الحوائج وتفقد الأحوال، والزيارة الأخوية، ويتابع هذا الشاكي فيقول: «دخلت المستشفى فلم يزرني الإخوة الذين أعرفهم، وزارني زملاء العمل الذين هم أقرب لأن يكونوا من عوام المسلمين، وبعضهم يعرض عليَّ المساعدة المالية، أو أي خدمة يمكن أن يؤديها».

ونحن نسمع ونرى كيف يخدم أهل الباطل بعضهم، أو من يريدون وقوعه في شباكهم، مع أن المسلمين هم أوْلى الناس بكل مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ولا يجوز أن يسبقهم سابق في هذا المضمار، وإننا نذكِّر المسلم بحديث: «اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما أحب» وحديث العاهر التي سقت كلباً في يوم قائظ فغفر الله لها، وحديث المرأة التي عُذِّبت في هرة لها حبستها، وحديث الذي كان يقام عليه حد الخمر فلعنه أحدهم، فقال له الرسول ﷺ: «لا تلعنه إنه يحب الله ورسوله» كما نذكِّرهم بقصة الإمام أبي حنيفة مع جاره السكِّير الذي دخل السجن فشفع له أبو حنيفة، ثم تاب وأناب.

إن من أسباب هذا الجفاء والجفاف عند بعض المنتسبين إلى الدعوة هو ضيق عطنهم، وجهلهم بحال المدعو وبطريقة الرسول ﷺ وحاله في تأليف الناس، وطريقة العلماء الربانيين من هذه الأمة. ولذلك تجدهم إذا رأوا من هو مقصر في بعض السنن عاملوه بازدراء واستخفاف، وقد لا يسلمون عليه إلا بصوت منخفض، ولا يهتمون به ولا يحاولون استمالته بالكلمة الطيبة أو بصنع المعروف حتى يميل قلبه إلى محبة السنة وأهلها.

وهذا الذي ينظر إلى المقصرين بعين الازدراء وقع في داء أشد وهو العجب بالنفس والاستطالة على الخلق. وهؤلاء غالباً ما يقعون في الغيبة باسم النقد والتقويم. وهذا المرض أصبح فاشياً، فتُذكر معايب المسلم وقد لا تكون فيه، وأكثرها من الأوهام والظنون، ولا تسأل كذلك عن المكر الذي يستعمله بعضهم مع إخوانه ويعد هذا من الذكاء والكياسة، وينظر للمسلم الذي لا يستعمل هذا المكر على أنه مغفل مسكين.

وبعد هذا كله، ألا يحق لنا أن نصف بعض جوانب أزمتنا بأنها أخلاقية، وهي فرع ولا شك من تخلفنا العام الذي طال مكثه فينا، ونحن نحاول من هنا وهناك الخروج من هذا المأزق؟!

* * *

مواعظ القرآن

يحتاج المسلم بين الحين والآخر إلى من يذكره ويعظه في نفسه، ويرقق له قلبه، ويضعه دائماً على الطريق السوي بلا إفراط ولا تفريط، وهذا التذكير إذا قابل نفساً معتدلة فإنها تقبل وتتأدب.

ولكنَّ هناك صنفاً آخر من المسلمين قد ابتعد كثيراً عن آداب الإسلام وأخلاقه، بل عن كثير من توحيد العبادة وما يليق بجلاله سبحانه وتعالى من المحبة والتعظيم والخضوع والتسليم، فمثل هؤلاء لا بد لهم من قوارع ومواعظ قوية تنبههم من غفلتهم، وتخرجهم عن غيبهم.

وليس أقوى من قوارع القرآن الكريم، الذي أثر في العرب تأثيراً بالغاً ليس بنظمه المعجز فقط؛ بل بزواجره ونواهيه وطريقة عرض قصصه في كل سورة، فلماذا لا يقرع أسماع هؤلاء بمثل هذه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

وعندما سمع أحد زعماء قريش رسول الله ﷺ، وهو يقرأ عليه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ..﴾ [فصلت: ١٣] طلب من الرسول ﷺ التوقف عن التلاوة.

وقد شدد رسول الله ﷺ القول فيمن رجع إلى أخلاق الجاهلية فقال: «مثل الذي يعين قومه على غير الحق، مثل بعير تردى وهو يُجر بذنبه»[1]، وكقوله في الحديث: «وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدي»[2].

لماذا لا يصارح هؤلاء الذين استعبدتهم التقاليد والمظاهر التافهة وأصبحت كلماتهم وأفعالهم أبعد ما تكون عن الإسلام، لماذا لا يصارحون بأن ما هم فيه إنما هو من رخاوة عقد الدين وضعف الإيمان؟!

إن كثيراً من الخطباء والوعاظ لا يلمس الداء ولا يضع يده على الجرح، وإنما يداورون ويتكلمون من بعيد، وقد لا يفهم المخاطب أنه هو المعني بهذا الكلام، مع أن هناك فرقاً بين المصارحة وبين الشدة في القول التي تؤذي السامعين أو تجعل عندهم ردة فعل. ومثل هؤلاء يشدد عليهم لفترة معينة حتى يعودوا إلى الله ويؤوبوا؛ وعندئذ يرجع الوعظ والكلام متنقلاً بين الخوف والرجاء.

إن النفس البشرية لا يكفيها مجرد تأليف الكتب ووضع الأنظمة، التي تقول لهم: هذا حق وهذا باطل، أو هذا حلال وهذا حرام، بل لا بد أيضاً من الإذعان الوجداني، والقناعة الداخلية والتأثير النفسي. وإن قصص القرآن وأمثاله المضروبة وأحاديث الرسول ﷺ كافية في إصلاح النفس وردعها ووضعها على الصراط المستقيم.

* * *

(١) صحيح الجامع الصغير/ ١٠١٦.
(٢) صحيح الجاكع الصغير/ ١٠٢٠.

التجمعات الصغيرة

لا ضير على من يتصدى للدعوة أن يتكلم عن الأخطاء والأمراض التي توهن العمل وتضعف الصف، فإن الكلام في مثل هذه الأمور ليس من التشاؤم ولا من التثبيط، ولكنه من الإصلاح الذي تحتاجه الدعوة باستمرار.

داء قديم سرى إلى التجمعات الإسلامية كنا نسميه مشكلة (الشِلَلْ) وهو أن يتجمع عدد قليل ممن تتقارب أسنانهم أو ثقافتهم أو جمعهم الإقليم الواحد، وقد يكون هذا طبيعياً في البداية، ولكن بسبب انسجام آرائهم، يتطور الأمر ليشكلوا أداة ضغط على العمل ويتعصبون لبعضهم، ويقدمون الخدمات لأنفسهم، ويحاولون كسب الأنصار، ولا مانع عندهم من وضع الناس في غير مواضعهم وعلى حساب الكفاءة والإخلاص، وتسير الأمور بهذه الطريقة وتصبح كأنها ظاهرة طبيعية فيشار إليها ضمن العمل الكبير ويقال: مجموعة فلان أو (شلة فلان). وهذا المرض إذا لم يتنبه له في البداية يستفحل ويؤثر تأثيراً سلبياً على الدعوة.

وعودة إلى السيرة النبوية وفقهها ترينا كيف منع رسول الله، ﷺ، مثل هذه التجمعات التي تبنى على القرب الجغرافي أو الانسجام في النفسيات؛ وذلك من الطاقات المبدعة، ووضع كل إنسان موضعه، وشغلهم بالنافع والمفيد، ولم يقرب أحداً لقرابة أو لمغنم أو مغرم، فالكل يرى نفسه منسجماً مع الدعوة له مكان فيها، ولكن عندما تقع أخطاء مثل هذه من الكبار فمن الطبيعي أن يكون رد الفعل انحرافات مثلها، فيتجمع العدد القليل ليثبتوا أنهم موجودون وأن لهم تأثيراً وفاعلية.

وقد يكون من الطبيعي أن ينسجم عدد محدود من بعضهم على ألا يؤدي

هذا إلى عمل جيوب داخل الجماعة، وعلى من يمارس عملاً مثل هذا أن يتقي الله، ويشعر بالمسؤولية ولا يزكي أحداً إلا على أساس الكفاءة والإخلاص.

* * *

ثقافة الكتاب

من الظواهر اللافتة للنظر في حياتنا الثقافية هذه الأيام مزاحمة الشريط المسموع للكتاب المقروء، وخاصة عند جيل الشباب الذي ضاق وقته في زحمة الدراسة وزحمة العمل. وهذا العصر هو عصر السرعة، فهو يستمع للشريط في غدوه ورواحه، وربما في المنزل وهو يقوم بأعمال أخرى.

والسماع أسهل من القراءة، فالقراءة بحاجة إلى صفاء في الذهن واستجماع طاقة التركيز؛ ولهذا بدا وكأن الكتاب ـ وبخاصة إذا كان من الحجم المتوسط أو الكبير ـ ثقيل الظل على هؤلاء الشباب.

وقبل أن نتكلم على أهمية الكتاب لا بد من القول إن الشريط الإسلامي الذي يتضمن المحاضرات والدروس القيمة والخطب المؤثرة الصادقة، قد ساهم مساهمة كبيرة في نشر الوعي بين صفوف طبقات كثيرة من الناس وأعطاهم ثقافة لا بأس بها، وهو وسيلة فعالة لأسباب كثيرة منها: سهولة التلقي، وسهولة الشراء، وسرعة الانتقال، ولكن هل يغني هذا كله عن الكتاب خاصة للشاب المسلم الذي يؤهل نفسه ليكون داعية؟ والجواب: لا؛ ذلك لأن الشريط وإن كان يتضمن علماً مثل الكتاب أحياناً، ولكن طريقة السماع لا تعطي العمق الذي تعطيه القراءة، والمعلومات التي في الكتاب لا يستطيع الشريط استيعابها، وفي الكتاب تعيش مع المؤلف ومع الكلمات فتعطيك روحاً من روحها، ونحن نتكلم عن الكتاب المعاصر الذي لا يوجد في شريط والذي يتحدث عن قضايا مهمة جدًّا من قضايا العصر، فهل يهمل لأن حجمه فوق المتوسط؟ فكيف إذا انتقلنا إلى كتب الأمهات والأصول مما كتبه الأجداد، وهو ذخيرة وأي ذخيرة في فهم الكتاب والسنة؟ ولا بد من الرجوع إليها وخاصة تلك التي تعتبر وحيدة في فنها، ولا نتكلم عن الكتيبات التي

زاحمت الكتاب أيضاً، وهي وإن كانت وسيلة ناجحة لطبقات معينة لكن يخشى أن تصبح هي الأصل ويستسهل الناس أمثالها، وينفرون من الكتاب حتى ولو كان من الحجم المتوسط.

لا يبني الداعية شخصيته بهذه الثقافة وحدها، إذ لا بد أن يعيش مع الكتاب، ومع الكتاب النافع المهم، ويتذكر أنه قبل كل شريط كانت هناك قراءة وكتابة، وأن العالِم أو الداعية الذي يستمع له قد أفنى حياته في القراءة قبل أن يقدم الشريط الجيد، وأما الاعتذار بضيق الوقت فهو حجة واهية؛ لأن الذي ينظم وقته لا بد أن يجد وقتاً كافياً يعيش فيه مع الكتاب، ونقول له أخيراً: إن القراءة متعة بحد ذاتها، وإن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

* * *

في الهدم والبناء

إن المتتبع لكل الجهود التي بذلها المسلمون خلال القرن الماضي فيما سمي بـ (النهضة) سيلاحظ شيئاً عجيباً، فهذه الجهود لم تكن تراكمية يستفيد فيها اللاحق من السابق، وينظر في أمرها فيأخذ ما صح منها ويبني عليه، ثم يأتي من بعده ويتم البناء، ولكنها في الغالب كانت تبدأ من الصفر فتخطئ وتصيب وتجرب مرات ومرات، وفي العادة تكون البدايات شاقة وتحتاج إلى طاقات كثيرة.

وسبب هذه الطريقة في التفكير والعمل ـ والله أعلم ـ أنا لم نتعود بعدُ على العمل المؤسسي الذي يقوم بالدراسات الدقيقة لكل عمل سبق وتقويمه تقويماً منصفاً حيادياً، ودراسة كل فكر تقدم، وكل تجربة لداعية أو عالم أو هيئة، وما هي الإنجازات التي تحققت أو الإخفاق الذي وقع. كما أننا لم نتعود على الإنصاف في تقدير جهود الآخرين، خاصة إذا كان يخالفنا ولو في شيء يسير، وثالث الأسباب أننا نحمل في داخلنا موروثات مذمومة من الحسد والشنآن فلا نذكر محامد أحد، بل إننا أقرب إلى حب التحطيم كما يفعل الأطفال بألعابهم.

كتب خير الدين التونسي قبل أكثر من قرن محذراً من الطوفان القادم (الغرب) إن لم يتدارك الأمر بالمؤسسات والبعد عن الاستبداد في الأمة وما يجر من ويلات، وعلى الرغم مما عندنا من ملاحظات على التونسي والكواكبي، وما في فكرهما من ثغرات وتشوش، فإن ما طرحاه في هذا الموضوع كان صحيحاً.

ولا يزال بين المسلمين من يقول بعدم إلزامية الشورى. ثم جاء الشيخ رشيد رضا وكتب في (المنار) مقالات قوية عن شؤون العمران والسنن الربانية في قوة الأمم ورقيها وأسباب ضعفها. واقترح تأسيس الجمعيات والمدارس التي تساهم في هذا

الرقي، وأظن أننا لم نستفد كثيراً مما كتب، وهكذا تكررت هذه الظاهرة، فقد قام الشيخ ابن باديس بتجربة قوية ناجحة في جمع علماء الجزائر في جمعية واحدة، وكان أثرها قوياً واضحاً في نهضة الجزائر، والآن نرى أكثر العلماء والدعاة متفرقين مع الأسف. وكتب مالك بن نبي عن المشكلة الحضارية وأن البدء يكون بتغيير ما بالأنفس، وكتب عن مشكلة الأشخاص والشيئية القادمة من عصور الانحطاط، ولكن المشكلة لا تزال قائمة. وجاء سيد قطب فكتب فصولاً جيدة عن القاعدة الصلبة وكيف تتكون.

وليست المشكلة فقط أننا لا نستفيد من صواب كل واحد منهم بل إن بعضنا ينقض ما عندهم من إيجابيات ويقلل من شانها، ويستهين بها. ونحن في ذلك ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ [النحل: ٩٢].

ولا ندري إلى متى نستمر في البناء والهدم والحزبية وقلة الإنصاف، والنزعة الأنانية الضيقة. والله وحده المستعان على هذه الحال، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

الهمة العالية

من أشد ما تصاب به أمة من الأمم أن يكون أفرادها ذوي همم ضعيفة، وعزائم واهنة وتطلعات قاصرة، يرى أحدهم نفسه قزماً أمام المتغيرات الكبيرة، والتحولات التاريخية، فلا يفكر في التغيير، ولا البدء في مشاريع مستقبلية، ومَنْ هذا وَصْفُهُ كيف يرجى له الشفاء إذا كان اعتقاده أنه لا يُشفى، ذلك أنه أسير تربية ذليلة، لم يقم يوماً بعمل مستقل أو بعمل تعاوني كبير، لم يتدرب يوماً على القيادة، فإذا فاجأه أمر تقوقع وانزوى؛ لأنه لا يملك الخبرة لإدارته.

إن عدم الثقة بالنفس مرض يفتك بالدعوة ورجالها، فتعيش دهراً وهي لم تفعل شيئاً ذا بال، وحتى إذا ما واتتها الظروف التي يهيئها الله سبحانه وتعالى رحمة بعباده المؤمنين فإنها لا تقدم على اهتبالها، وذلك كله لعدم الثقة بالنفس، بل تصاب بالدوار إذا نظرت إلى ما هو مطلوب منها أو ما ينتظره الناس منها، ومن العجيب ـ والعجائب جمة ـ أن تتاح الفرصة أمام الدعوة فلا تقتنص، ثم لا يأتي مثلها إلا بعد دهر.

إن الخروج من المأزق له منافذ، ومنها أن أرض الله واسعة لمن يريد الانطلاق، ولمن يريد تأسيس أعمال كبيرة، والطاقات متوافرة ولكنها بحاجة إلى عزمة أكيدة وثقة بوعد الله، ولقد بعث الله موسى عليه السلام ليخرج قومه من الذل والاستعباد، إلى التمكين في الأرض، والاسترواح بشرع الله، ولكن نفوسهم كانت ضعيفة صغيرة، لا تستطيع حمل مثل هذا العمل العظيم، وذلك لما أنسوه من العبودية لفرعون وملئه، فتصاغرت نفوسهم وهانت عليهم حتى لم يعودوا يرون أنها جديرة بمرتبة الاستخلاف في الأرض.

بينما نجد أن العربي الذي تلقى من التربية النبوية المباشرة، والذي لم يتلوث بهاتيك المفاسد يحمل بين جوانحه من الآمال والطموحات ما يغريه على اقتحام الأهوال وجَوْبِ البحار لتبليغ هذا الدين.

لا بد أن ينعتق الفرد المسلم من مثل هذه الأجواء التي تقيده وتشعره بضآلته، وتشعره بأنه جزء صغير من آلة ضخمة، ومن عجلة تدور لا يستطيع الفكاك منها، لا بد أن يقتنع الفرد المسلم بأن عنده طاقات وقدرات يستطيع بها القيام بأعمال كبيرة.

* * *

درس من السيرة

مرت الدعوة الإسلامية في طورها الأول بتجربة قاسية، فقد امتحن الصحابة الكرام وابتلوا بلاءً شديداً، كما وقع لبلال وعمار وخباب رضي الله عنهم أجمعين، وهذا الابتلاء لا بد منه في الدعوات، حتى تصقل ويقوى عودها، ويزداد رجالها خبرة وتجربة وتمرساً في الحياة، فإذا مُكِّنَ لهم في الأرض كانوا على قدر المهمة المناطة بهم. وحتى لا تكون المحنة أقسى مما يتحمله بشر، فعندئذ قد يتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس، كان رسول الله ﷺ يخفف من آلام أصحابه، ويدعوهم إلى الصبر، ويذكرهم بما وقع للمؤمنين من قبلهم، ويبشرهم بأن سيكون بعد الضيق فرج بإذن الله، فكانت كلماته برداً وسلاماً على قلوبهم، وكان رسول الله ﷺ، - وهو الرحمة المهداة - يبحث عن مخرج لهذه المحنة، فأشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر من هاجر في المرتين، وعاشوا هناك آمنين مطمئنين يعبدون الله دون خوف أو أذى، واستمر رسول الله ﷺ يبحث عن مخرج وفسحة أكبر من الحبشة، حتى تأذن الله بالفرج وذلك بإسلام نفر من أهل المدينة، ثم كانت الهجرة الكبرى ثم كانت الدولة.

ابتلي المسلمون في هذه الأيام بلاء كبيراً، ورماهم الغرب وأتباعه عن قوس واحدة، وقامت قيامة الإعلام عليهم ينبزهم بألقاب هم بريئون منها، ويؤزُّون عليهم من يكره الإسلام وأهله، ويحرضون عليهم السفلة ورعاع الناس.

والابتلاء إذا كان قاسياً قد يحطم الفرد، ويجعله في حالة شلل تام، بل قد يحطم المجتمع إذا لم يكن متماسكاً وعلى درجة عالية من الأخوة والتناصر، وحتى ذلك أو قبل أن يحدث ذلك فإن البحث عن مخرج لهذه الفتن المتلاحقة هو من مهمة القيادات الواعية، والدعاة الصادقين، والعلماء العاملين، ولا بد أن يرى

الشباب بصيصاً من الأمل، وبشارة بقرب زوال هذا الليل الذي طال وناء بكلكله على صدور المسلمين، لا بد من عمل كبير، واجتهاد صحيح في كيفية التغيير، وإن فقدان العلماء ـ الذين هم على معرفة بالواقع وعلى ارتباط به والذين يجتهدون لكل حادثة، ويكون لهم تأثير كبير وفعال ـ يضر كثيراً بالعمل الإسلامي، ويجعل الأصاغر يجتهدون ويخربون ولو كان ذلك بحسن نية. فهل من مبادرات لسد هذه الثغرة، وحتى لا يقع المحذور؟

* * *

الحزبية

ليس هناك أضر على الدعوة الإسلامية المعاصرة من الحزبية المنغلقة الضيقة، إنها داء وبيل يفتك بالأخوة الإسلامية، فيقطع أواصرها ويجعل صفوها كدراً.

هل يجوز للمسلم أن يكون وجهه الطلق؛ وابتسامته العريضة، وسلامه الحار لمن هو من حزبه أو جماعته؛ ولغيره العبوس والسلام البارد؟! وهل يجوز للمسلم أن يغض الطرف عن أخطاء أصحابه؛ وإذا وقع غيره في الأخطاء نفسها شهّر به وتكلم عليه؟! وإذا ذكرت له انحرافاً في الفكر أو التصور وقع فيه واحد منهم أتى بالمسوغات وقال: هذه أخطاء؛ ولكنها لا تخدش في أصل المنهج! وبسبب هذه الحزبية تراه لا يطّلع ولا يقرأ ولا يستقي إلا من طرف واحد، من كتب أصحابه وممن يوصي ألا يقرأ إلا لهم، فيتخرج ضيّق الأفق، مشوه الشخصية الثقافية، لا ينظر إلا من زاوية واحدة ولا يعرف إلا الفكر الأحادي.

كيف تغلغلت هذه الحزبية إلى صفوف الدعوة؟ ومن الذي يمدها حتى تستمر؟ لا شك أنها التربية السيئة التي تُمارَس على الفرد فيقال له: نحن الأفضل، وغيرنا فيه نقص كذا ونقص كذا، وكل هذا حباً في التكثير والتجميع، فلا بد أن يشوه الطرف الآخر حتى لا يذهب الفرد إليهم، وكأننا أحزاب تتنافس على الانتخابات فهي تشتري الأصوات بالدعاية والمال.

ومن هذه التربية أن يحال بين الفرد في أول عهده بالدعوة وتلقّي العلم، وبين الجلوس إلى العلماء أو من عندهم علم وخبرة، فيربونه بأدبهم وسمتهم وتجربتهم، وإذا حيل بينه وبين هذا فهو يتلقى ممن يباشر عملية التربية، فإذا كان ديِّناً وعنده علم وليس فيه حب الزعامة كانت التربية أقرب للصواب، وإذا كان ممن يحب الزعامة

أو فيه شيء من زغل العلم فعندئذ يتخرج من تحت عباءته شباب متحزبون مشوهون. ولا ينجو من هذا الداء إلا من تنبه له من البداية، وعرف أن أنواعاً من التربية ستؤدي حتماً إلى الحزبية، فخاف واحتاط لنفسه، فهو يحاسب نفسه ويتلفت وراءه ويجدد ويتجدد بين كل فترة وأخرى، حتى لا يقع في هذا الداء الذي تطاير شرره وعم بلاؤه.

* * *

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾

جاءتني رسالة من طلبة مسلمين يدرسون في أقصى المشرق، يقولون فيها إنهم متحيرون بما تعج به الساحة الإسلامية من القيل والقال عن فلان الداعية أو الجماعة الفلانية، فنسمع من القدح ما يصل إلى درجة التضليل والانحراف، والأسماء كثيرة ومتنوعة، ونحن نبحث عن الحق وعن المنهج الذي يجب على المسلم الالتزام به تجاه ما يدور حوله.

إن تساولات هؤلاء الإخوة ليست مقصورة عليهم، بل ربما سمع كثير من الشباب المسلم بمثل ما سمعوا، ووقفوا متحيرين متسائلين عن وجه الحق في غمرة هذا التفرق والتشرذم، ونحن نعذر بعض العذر هؤلاء الإخوة لكثرة ما يقال ويكتب في أمور تشوش الذهن وتكدِّر الخاطر، وليس فيها مصلحة للدعوة. ونقول بعض العذر؛ لأن المسلم المتعلم أمثالهم يجب أن يملك الميزان لمعرفة واقع الدعوات والدعاة، ومن أَوْلى الموازين في ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ وكثير مما يقال هو بالتأكيد أقوال بلا علم، أغلبها روايات تنشر تعتمد على الحزبية، أو على قراءات ضعيفة وبغير تحقيق، وعندئذ يُلقى القول على عواهنه.

ومن الموازين أن منهج أهل السنة والجماعة ـ وهم خير القرون ـ هو الأصل في هذا، ومنهجهم في الفهم والاستدلال من الكتاب والسنة، وكل من كان أقرب إلى هذا المنهج فهو الأقرب إلى الحق، ويجب على المسلم مؤازرته ومناصحته، وهذا المنهج ليس كلمة تقال في المحافل بل هو تطبيق علمي وعملي لقواعده، واحترام لعلمائه ودعاته؛ ومن تطبيقات هذا المنهج الإنصاف في الحكم ولو على الأعداء، وعدم الخوض في أعراض المسلمين إلا أن يكون داعي بدعة أو ضلالة.

والفرق المنحرفة لا تملك هذه الأخلاق، فتراهم يَدَعُون أهل الجور والفسق

والفجور، ويلاحقون الدعاة بالنقد والتجريح، وهذه طريقة الخوارج بعينها كما وصفوا بأنهم يَدَعُون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإيمان.

ومن الموازين أن أصحاب المنهج السليم يهيئ الله لهم القبول في الأرض، فتكون طريقتهم مَرْضِيَّةً، ويوفقون في مسائل العلم التي يطرحونها، وفي عرض الإسلام للناس ودعوتهم إليه، وأهل البدع ليسوا كذلك، وهذا مما يزيدهم حنقاً وحقداً، فتكثر اتهاماتهم، ويكثر لغطهم؛ ويكون هذا من الابتلاء وزيادة الأجر لمن يتكلم فيه الناس، وشيء آخر وهو أن الأمور بخواتيمها، ومن ثمراتهم تعرفونهم.

فانظر أيها السائل في الساحة الإسلامية: مَنِ الذي يقدم العطاء؛ ومَنِ الذي لا يقدم، وقد قال السلف: إذا رأيتم من يذكر الإمام مالكاً بسوء فاعلموا أنه مبتدع.

* * *

الحلقة المفقودة

قال صاحبي: عجيب أمر هذه الشعوب، كيف تسكت على الظلم، وترضى بالهوان بل بالفقر والجوع، وكيف تسير مع أجهزة الإعلام أنَّى سارت!

قلت له: مع أن هناك فرقاً بين بعض الشعوب إلا أن كلامك في الجملة صحيح، ولكنك يا أخي تذكر الشعوب ومن يظلمها أو يسيرها بأجهزة إعلامه المرئية والمسموعة وتنسى حلقة بين هذين الطرفين وهي إن كانت موجودة فوجودها ضعيف غير مؤثر، وهي التي كان باستطاعتها أن تكون لها الكلمة المسموعة. نسيت يا أخي العلماء، هؤلاء هم زعماء الأمة، وورثة النبوة، وهم الموجهون لها، وهم الذين يَحُولون بين الشعب وبين سقوطه فريسة الاستبداد، وهم الذين تتطلع إليهم الأمة في الملمات والشدائد، وحين تطل الفتن برأسها وحين تختلط الأمور، وأعني بذلك العلماء المستقلين الذين يجمعون بين العلم والدين، ويتكلمون كلمة الحق دون خوف أو وجل من قطع راتب أو تنحية عن منصب، هؤلاء قلة نادرة الآن، بل في بعض البلدان لا تجد لهم أثراً. ومن هذه القلة النادرة أناس عندهم حظ وافر من العلم والتقوى، ولكنهم غمطوا أنفسهم فابتعدوا عن مجالات التصدي لزعامة الناس وكأنهم ظنوا أن هذا من طلب الشهرة، ولهؤلاء نقول:

إن علاقة العلماء بجماهير الأمة ستجعل لهم وزناً ويحسب لرأيهم حساب، «فهم على الحقيقة أصحاب الأمر استحقاقاً، وذوو النجدة مأمورون بارتسام مراسمهم واقتصاص أوامرهم والانكفاف عن مزاجرهم»[1].

لقد بذلت الحركات الإسلامية جهوداً في محاولة استئناف حياة إسلامية

---

(١) الجويني: غياث الأمم في التياس الظلم، ص ٣٧٩.

ولكنها لم تملأ هذا الفراغ بإبراز عدد من العلماء الربانيين الذين يفزع الناس إليهم ويسمعون منهم ويتبعونهم، وهؤلاء هم الذين يبعدون الشعب عن اتباع كل ناعق، هؤلاء العلماء إذا لم يكونوا موجودين في قطر من الأقطار فيجب علينا إيجادهم ونعدَّ لهذا باختيار الطلبة الأذكياء ودفعهم إلى تعلم العلم الشرعي والتبحر فيه، ومعرفة الواقع ليصبحوا محط أنظار الشعب يسألهم عما يفيده في دينه ودنياه، وعما ينجيه من النار ويدخله الجنة.

* * *

صحوة أم تجديد؟

شاعت في هذه الأيام على ألسنة الدعاة والكتاب كلمة (الصحوة) يعبرون بها عن الاتجاه القوي نحو الدين على مستوى الأفراد والشعوب، ولا شك في أنها ظاهرة واضحة وقوية لا تحتاج إلى أدلة أو برهان، فالعودة إلى الدين والالتزام به سلوكاً وفهماً نراه في كل مكان، والمؤتمرات التي تبحث هذه الظاهرة تعقد على أعلى المستويات. ولكن هل ما نحن فيه، وما يجب أن نكون عليه يكفي في التعبير عنه كلمة (صحوة)؟ أليس مما تعنيه أنها إفاقة بعد نوم، قمنا بعدها نتمطى ونفرك أعيننا لنرى ما حولنا؟ وهل هذه الإفاقة هي من تاريخ استعمال هذا المصطلح - وهو حديث العهد - أم أنها أقدم بكثير؟ أو لا تعني - مما تعنيه - أنها مؤقتة، فقد يصحو الإنسان ثم يغفو، وربما تكون الصحافة الغربية قد أطلقتها على أحداث السنوات الأخيرة في العالم الإسلامي لتعبر فيها عن قلقها من ظاهرة التدين؛ فتلقفتها الصحف عندنا، ثم سرت إلينا.

قد يقول قائل: لا مشاحة في الاصطلاح، سمها ما شئت، فالمقصود هو الرجوع إلى الدين، وهذا صحيح، ولكن أخشى أن تسري سطحية هذا المصطلح إلى الفكر الإسلامي، فنحن بحاجة إلى التجديد بكل ما في مصطلح التجديد من عمق، وكل ما فيه من تعب وكد في العلم والتدبر والتأمل. نحن بحاجة إلى التجديد لإزاحة كثير من الغبش عن بعض المفاهيم الإسلامية، والتصورات التي كبلت الشخصية المسلمة عن الانطلاق، ونحن بحاجة للتجديد في وسائل العمل، وفهم الواقع، وفقه بناء الأمم، وكيفية إقامة (البنيان المرصوص). ونحن بحاجة إلى التجديد أمام التحديات الحضارية التي ما زالت رياحها تهب من الغرب.

وإذا كانت الدعوة في بداية مراحلها، وتحتاج إلى رعاية فائقة، وشحنة عاطفية ـ كالطفل في أعوامه الأولى ـ فإنها الآن أمام تحديات كبيرة، فلا بد من العقول المفكرة والعلماء المجتهدين والتخطيط، والنظر في وقائع الاجتماع البشري والسنن الربانية، والتدرب على تحليل الحاضر واستشراف المستقبل، وهذا كله يندرج تحت حديث التجديد: «يجدد لها أمر دينها» وأمر دينها يندرج تحته أمر دنياها أيضاً؛ لأنه وسيلة إلى الأمن والاطمئنان والقيام بأمر العبودية على أتم ما تكون.

* * *

ظلم ذوي القربى

عندما كان القتال محتدماً بين أحزاب الجهاد الأفغاني في العاصمة كابل، وكانت القذائف تنزل حمماً على رؤوس الآمنين[1] والمسلمون في كل مكان يتألمون لما يقع بين إخوة الجهاد، ويزداد ألمهم عندما يفكرون بالأثر الذي يحدثه مثل هذا القتال على نفسية المسلم ومعنوياته، ففي أثناء هذا الصراع تمنى أحد زعماء الجهاد إيقاف هذا القتال، وإن لم يكن نهائياً فعلى الأقل في شهر رمضان المبارك، وقال هذا القائد: كنا أحياناً نتوقف عن القتال في شهر رمضان أثناء جهادنا مع أعداء الإسلام، مع حكومة كابل الشيوعية، أفلا نستطيع الآن أن ننفذه مع إخواننا وفيما بيننا؟

حقاً إن ظلم ذوي القربى شديد على النفس، وهذا إذا وقع بين الأقارب في النسب، فكيف به إذا كان بين الأقرباء في العقيدة والدين، وكيف به إذا تعدى ظلم فرد لمثيله وأصبح فاشياً في ظلم مجتمع لمجتمع، أو جماعة لجماعة فهو أشد مرارة، وأكثر ألماً، وأقسى من كل ما تصاب به الأمة من عدو خارجي؛ لأن المحنة عندما تأتي من إخوة لك في الدين، فهذا سيؤدي إلى فقدان الأمل عند جماهير الناس بمن يتصدى للدعوة، وفقدان الأمل من قرب استئناف حياة إسلامية، وسيؤدي إلى الإحباط وإشاعة روح اليأس، وسيكون التساؤل قوياً وحاضراً وملحاً: إذ كان هؤلاء يتخاصمون ولا يتفاهمون، ويتعادون ويتشاكسون. فهل هناك أمل في الإصلاح المنشود؟

---

(١) توقف هذا القتال كما حملت لنا الأخبار أخيراً، ونتمنى أن يستمر هذا التوقف، ويصمد هذا الاتفاق، وأن يحكم الإسلام بلاد الأفغان.

هل أصيب المسلمون بأمراض المنطقة وأوبئتها؟ فصاروا مثل غيرهم من الأحزاب المتناحرة، حيث اشتهر (الرفاق) في الأحزاب العلمانية بممارسات تصفية زملائهم، سواء بالتصفية الجسدية أو الإبعاد أو السجن.

هل يعي المسلمون ـ والكلام ليس للأفغان وحدهم ـ أنهم بتنازعهم وأنانيتهم، وضيق أفقهم وروح الإقليمية التي شاعت بينهم، سيكونون من أشد المساعدين على بث اليأس والهزيمة النفسية، وهل يعي المسلمون الدرس الأعظم في تاريخنا، وهو مقتل الخليفة الثالث ظلماً وعدواناً، تلك المحنة الداخلية التي كانت أوقع أثراً في المجتمع الإسلامي وفي التاريخ الإسلامي من كل المحن الخارجية.

إننا لا نستطيع أن نقول لهؤلاء الذين يتشبثون بأنانيتهم وأغراضهم الخاصة، ويدافعون عنها ولو ضعفت الدعوة وتمزق الصف، لا نستطيع إلا أن نذكرهم ونقول: اتقوا الله في هذه الأمة، التي تكاثر عليها الأعداء، فلا تكونوا عوناً لهم وإن كنتم لا تقصدون ذلك، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

* * *

وتريدون أن يمكن لكم!

لا بد أن تكون الدعوة في بدايتها قوية مندفعة، تُبذل في سبيلها طاقات تحتمل أكثر مما كانت تحتمل، وترتفع فيها درجة الإيمان والسمو الأخلاقي حتى يستطيع الفرد تحقيق ما يعجز عنه أمثاله، بل عشرات أمثاله من الآخرين. هذا هو الذي يعجل بالانطلاقة، حتى تدور رحى الإسلام كما دارت أول مرة، وكما سطع نوره في كل فترات التجديد.

وفي مثل هذه الأجواء يتغلب المثل الأعلى على كل جواذب الأرض، ويعيش المؤسسون الأوائل ومن يلتف حولهم ظروف التفاني والإخلاص، وتكون علاقاتهم الاجتماعية في ذروة التآخي والتلاحم، هكذا نجحت الدعوة الإسلامية الأولى وهكذا ارتفع المهاجرون والأنصار فوق العصبية القبلية والإقليمية والقومية، كما ارتفعوا فوق الأنانيات الشخصية، ولم يحتج المسلمون وهم مضطهدون في مكة، ولا حتى عندما قامت لهم دولة في المدينة إلى قضاة أو محاكم لفض خصوماتهم، وأقصى ما يفعلونه أن يشتكي أحدهم إلى الرسول ﷺ بسبب كلمة أو هفوة قيلت في حقه، أو يعترف هو للرسول ﷺ بذنبه ليقيم عليه الحد كما في قصة ماعز والغامدية؛ وذلك لأن الوازع كان من داخل أنفسهم، وكان ميزان الشرع هو الميزان الوحيد الذي يتعاملون به، وعاش العالم الإسلامي دهراً بتأثير تلك الاندفاعة العظيمة.

يطلب المسلمون اليوم نجاحاً للدعوة، ولكنهم يمارسون أعمالاً ويسلكون سلوكاً أدنى بكثير مما يُطْلَبُ للإحياء والتّجديد، ويذكرون الخلافة الراشدة في أحاديثهم وكتبهم، ولكن تصرفاتهم ليست قريبة من تلك الصورة الوضاءة.

كانت الرعية تقدم الطاعة لأبي بكر عن رضا وطواعية ودين، وليس عن رهبة أو رغبة، لا طمعاً في مال أو منصب، ولا لأنه من قبيلة معينة، وكان الخلفاء الراشدون يعاملون الرعية بمثل ذلك فلا يقربون أحداً لأنه صاحب مال، أو لأنه ضعيف الشخصية لا يعارضهم في شيء، أو بسبب قرابة قريبة، كل ذلك كان غير وارد في أذهانهم، فهل يتعامل المسلمون اليوم بهذا السلوك؟ الواقع يدل على أنهم يتعاملون بالطرق التي أُحدثت بعد الراشدين فقد يُقرَّب صاحب المال، ويكون له الأمر والنهي وإن لم يكن في العير ولا في النفير، وقد يقرب صاحب الشخصية الضعيفة حتى لا يعارض أو يسأل عن كل صغيرة وكبيرة، وأما الذي ينصح ولا يداهن ويتكلم عن الأخطاء ـ ولو كان ضمن الضوابط الشرعية ـ فهو شخص غير مرغوب فيه غالباً. فهل نستطيع بهذه العقلية، وهذه الأخلاق أن ننهض ويكون لنا شأن؟

* * *

الأعمال الجماعية

كان الجيل الأول من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على فهم عميق بمقاصد الإسلام ومراميه في إصلاح البشر، وكانت الأمة يومها في حالة إنشاء وتأسيس وتيقظ واندفاع، فهي تقوم بالأعمال الحضارية بصورة عفوية تأتي من طبيعة الإسلام نفسه.

في مثل هذه الأجواء قام الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعمل علمي كبير يؤكد حديث رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي..».

لقد خشي عثمان ـ رضي الله عنه ـ من تفرق المسلمين واختلافهم في قراءات القرآن، فعزم على جمعهم على مصحف واحد، وشكّل لهذا الأمر لجنة علمية من: زيد بن ثابت، عبد الله بن الزبير، سعيد بن العاص، عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسأل عن أفصح هؤلاء، فقيل له: سعيد بن العاص، فقال: فليمل سعيد وليكتب زيد، وقال لهم أيضاً: «إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم».

وقامت هذه اللجنة بمهمتها ـ وربما تكون أول لجنة علمية في الإسلام ـ وأرسلت المصاحف إلى الأمصار، واجتمع الناس على مصحف إمام.

أليس هذا عملاً عظيماً، وهو من صميم حضارة الإسلام، وإن عمل هذه اللجنة يلفت نظرنا إلى ما عليه حال المسلمين اليوم من البعد عن الأعمال الجماعية والعلمية بخاصة، حيث تجتمع الطاقات وتحشد الجهود، ويستفيد كل واحد من الآخر، والسبب في هذا أنه لم تترسخ عندنا المؤسسات العلمية التي تقوم على

الجهد المشترك لإخراج أعمال لا يستطيع الفرد أن يقوم بها، وإن فعل فسيكون إنتاجه ضعيفاً.

إن التخلف الحضاري الذي نعيشه والذي ورثناه يبعدنا عن العمل المؤسسي، فالفردية متأصلة فينا، ويصعب على الفرد أن يشاركه غيره في عمل علمي؛ لأنه لم يتعود على الحوار والمشاركة، وسماع وجهات النظر الأخرى.

إن الأعمال والجهود المتعاونة إذا كانت ضمن منهج علمي واضح ستؤدي إلى نتائج يتفق عليها الجميع.

* * *

أصحاب العقل المعيشي

لا شك أن الحزب الأكبر داخل المجتمعات الإسلامية في هذه الأيام، هم مَنْ وصفهم ابن القيم بـ (أصحاب العقل المعيشي) الذين يقلقهم دائماً التفكير بكيفية رفع مستواهم المعيشي، أو كيفية المحافظة على هذا المستوى. ترى أحدهم يفكر ليل نهار في هذه الأمور، ويتعب نفسه ليل نهار بغية الوصول إلى مستوى يضاهي أصدقاءه وجيرانه، فالأحاديث دائماً عن المسكن والملبس، وعن السيارة والأثاث والراتب.

هؤلاء جمهور كبير، قد ألفوا هذه الحياة وعاشوا على هامشها، تتقطع بهم الأيام والليالي، بلا هدف ولا رسالة، فهل يستطيع الدعاة نقل هذا الصنف من الناس إلى الطرف الآخر، أو بالأصح الانتقال بهم تدريجياً ليصبحوا أصحاب مبدأ ورسالة والتزام؟

ليس عسيراً نقل بعضهم على الأقل، وذلك عندما تُغشى مجالسهم، ويسمعون التذكير البليغ والموعظة المؤثرة، وبيان عظمة الله في خلقه وأمره، وآياته في الأنفس والآفاق، وأحاديث اليوم الآخر، ومصائر الشعوب والأفراد من العصاة قديماً وحديثاً وبيان محاسن الإسلام.

إن من الضروري للدعوة أن تنتقل إلى صفوفها أعداد غير قليلة حتى تفرض نفسها على أرض الواقع، ومن الضروري أن ينتقل إليها من كان عدواً لها بالأمس أو مُهملاً لها، فهؤلاء ربما يكونون أنشط وأقوى؛ لأنهم يريدون تعويض ما فات من التقصير والنقص، وهناك أساليب كثيرة ـ غير ما ذكرنا ـ لاجتذاب أمثال هؤلاء أو بعضهم، ولكننا نحن المقصرون في تجديد الوسائل الدعوية واستنفاد كل

الجهود للاتصال بجماهير الأمة ودعوتها للالتزام بدين الله.

لقد سمع أحدهم حبر الأمة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو يفسر سورة البقرة في أيام منى، فقال: لو سمعها اليهود والنصارى لأسلموا، وذلك دليل على أن العلم بكلام الله ووضعه مواضعه الصحيحة قد يؤثر في أشد الناس عُتُوّاً، وخاصة إذا خرج الكلام من قلب خالص يملؤه الاهتمام بأمر المسلمين.

* * *

طبيعة الإسلام

إن طبيعة الإسلام تأبى أن يقوى عوده، ويعلو شأنه، عن طريق المؤتمرات التي تعقد في الفنادق الفخمة، وفي الصالات والردهات التي تنفق عليها عشرات الألوف إن لم نقل مئات الألوف من الدولارات. ويبدو هذا الأمر واضحاً للدعاة الذين تمرسوا بالدعوة، وعاشوا همومها، وتدارسوا السيرة النبوية وعاشوا مراحلها من حراء إلى حصار الشعب، ومن الدعوة في الطائف والاتصال بالقبائل إلى الهجرة والجهاد، ثم بناء الدولة.

إن القرآن الكريم قد ذمّ الترف والمترفين، ونهى المسلمين عن الركون إلى ذلك، ودعا إلى القصد وعدم الإسراف في شؤون الحياة. كما نهى عن إنفاق الأموال الكثيرة في سبيل الكماليات ورغد العيش، وهذا أمر مطلوب؛ إذ كان الإسلام هو الحكم المنتصر، الضّاربُ بجرَانه في الأرض، فكيف إذا كان في غربة وأهله مستضعفون متخطَّفون في الأرض، يحاربهم القريب قبل البعيد؟!

إن الإسلام لا يقوى إلا بالجهد والتعب، ولا يقوى إلا بالإيواء الذي يوفر للمسلم الأمن النفسي والاجتماعي، ولا يقوى إلا بالنصرة التي تأخذ للمظلوم من الظالم، وتحقيق معاني المؤاخاة والموالاة على أرض الواقع وليس في طيات الكتاب المؤلفة عن (الأخوة الإسلامية)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

[الأنفال: ٧٢]

منذ أن نشأت ظاهرة المؤتمرات في الفنادق لم نجد لها أثراً كبيراً في تقوية جبهة الإسلام، وإن ما ينفق عليها يمكن أن يؤسس مدرسة بل كلية في بلاد المسلمين

الفقيرة، كي يتخرج منها مئات الطلبة الذين يتربون على منهج سليم، وأخلاق عالية؛ لأن أولئك هم الذين يمكن أن يحدثوا أثراً فعالاً في بلادهم.

كيف نقدم أموالنا للغربيين (أصحاب الفنادق) ثم نقول: إن ما نقوم به هو خطوة كبرى في سبيل تقدم الإسلام، وإذا كان أمر المؤتمرات بهذه الأهمية فلماذا لا تكون للمسلمين أماكن مُعدّة لهذا الغرض، وتكون ملكاً لهم حتى لا تذهب أموالهم سدى؟

* * *

درس من السيرة

لا بد أن نعود دائماً للسيرة النبوية، نستلهم منها ما يفيدنا في سيرنا الدعوي، ونعود لبدايات تشكل القاعدة الصلبة التي كانت قلب الرحى الذي يدور حوله المجتمع الإسلامي. كانت هذه القاعدة في مراحلها الأولى من الطبقة التي سميت فيما بعد بالمهاجرين، وجلّ هؤلاء من قريش، التي كانت تتمتع بصفات نادرة، تفوقت بها على القبائل العربية، القريبة والبعيدة.

قال القدماء: والعجيب أن قريشاً تركت الغزو والنهب على طريقة العرب يومها، ولكن بقيت فيهم الشجاعة والأنفة، وقوة البأس. ومع انشغالهم بالتجارة والرحلات التجارية إلا أنه لم يعترهم ما يعتري التجار عادة من البخل والمداهنة والمماحكة، بل كان الفرد منهم يطعم الطعام لزوار البيت، وتمدحهم الشعراء كأنهم ملوك.

إن بنية الفرد في هذه القاعدة بنية قوية، فكيف إذا أكرمه الله سبحانه وتعالى بالإيمان والتوحيد الخالص، فلا شك أنه سينقلب إلى شخصية تقيم الدول، وتحرك التاريخ. ولقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الدين بأنه (الفطرة) ومعنى هذا أن الفطرة السليمة تقبله، وتقبل تفصيلاته الجزئية. أما إذا كانت الفطرة فاسدة، والبنية الأساسية مفقودة فكيف يقوى على حمل هذا النور، ويتمثله واقعاً وعملاً من يحمل بين جنباته الضعف والضآلة، ويحمل مفاسد المدنية المعاصرة، وتناقضات المجتمع الذي يعيش فيه.

هل يقوى على حمل هذه الأمانة من تعوّد على الكذب؟ أو رجل أناني إقليمي أو رجل ليس عنده وفاء وشجاعة. وهنا نجد أن شخصية الفرد شخصية هشة

لا تستطيع بناء الدول ولا إقامة بنيان مرصوص. حتى وإن قرأ الكتب وحفظها وصار مناقشاً ومجادلاً، والأصل أن فهم العقيدة السليمة وتطبيقها على أرض الواقع يؤدي إلى هذه الأخلاق العالية التي لا بد منها لحمل الرسالة، فإذا لم نجد مثل هذه الشخصية فهذا يعني خللاً في فهم العقيدة أو في التطبيق.

إن الظروف العصيبة التي يعيشها المسلمون لهي في العمق من المرارة والقسوة بحيث تحملهم على أن يفكروا في أمرهم، ويزدادوا بصيرة بأحوالهم، وقد ضرب الله لنا الأمثال ببني إسرائيل وأخلاقهم الملتوية، ونفسياتهم المحطمة حتى لا نقع فيما وقعوا فيه، هذه الأخلاق التي جعلت سيدنا موسى عليه السلام يعاني منهم ما يعاني وهو يريد إنقاذهم، وجاءت خاتمة الرسالات وكان حواريو رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فكانوا خير أصحاب لفهم الدعوة وتبليغها والدفاع عنها.

* * *

الهروب إلى الأمام

عندما تكون وطأة الواقع ثقيلة قوية، وعندما لا يقوم المسلمون بواجبهم من الأخذ بالأسباب الشرعية والاهتمام بالعدد والعدة، وعندما يخفقون بسبب أخطائهم المتكررة، أو مخططاتهم القاصرة، عند ذلك يلجأ بعضهم إلى ما يسمى في علم النفس بسياسة (التعويض)، فتوسوس لهم نفوسهم تخيلات موهومة، وحكايات عجيبة، وأشياء مضطربة، تتملكهم وتسيطر عليهم، حتى يظنوها شيئاً وهي ليست بشيء، وإنما هي أوهام وظنون. فيركضون - مثلاً - وراء (خليفة) وهمي، أو يقعون في حالة اليأس والإحباط وينتظرون (المهدي)، أو يذهبون إلى عالَمٍ آخر، عالم الجن والشياطين؛ فقد حدثني أحد الثقات أنه قد أُلِّفَ في بلده وحدها في السنوات الأخيرة حوالي سبعين كتاباً أو كتيباً عن الجن والشياطين، وغالباً ما تكون النوايا طيبة في مثل هذه الحالة، ولكن ليس هذا هو الطريق. وقد يهرب أناس من هذا الواقع الذي يدعوهم للتحدي والتعب والنصب إلى الإغراق في تفاصيل العلوم، الذي هو من قبيل (تلبيس إبليس) والذي غيره أفضل منه وأوْلى.

إن حالتهم هذه شبيهة بما وقع للمسلمين بعد القرون المفضلة، عندما هرب بعضهم إلى التصوف والزوايا والتكايا، ينذرون للأولياء النذور، ويطلبون منهم الحاجات، فوقعوا في الشرك والكسل والبطالة، كما وقعوا في الأفكار الغامضة المشوشة.

تكَالب العالمُ في هذه الأيام على المسلمين، ورماهم عن قوس واحدة، وأظهر ما كان يخفيه من قبل، وبانت عداوته صريحة لا التواء فيها، فماذا يفعل المسلمون؟

هل يجابهون هذا بافتعال أمور ليست صحيحة؟ أم أن الأوْلى بهم دراسة هذا الواقع، والتأمل فيه، ومعرفة مكامن القوة ومكامن الضعف، ومجابهة هذا الواقع بالإمكانات الذاتية والقدرات الموجودة بعد تنميتها وصقلها.

لا بد من البحث العميق في نفسية المسلم وعقله وأخلاقه التي تعيق النهوض والتمكن، والبحث العميق في أسباب التفرق وأسباب التوحد، والإخلاص في ذلك كله لله. ولا بد من تملك ناصية كل العلوم المفيدة التي يأمر بها الإسلام ويحبذها، لتكون وسيلة من وسائل ﴿ وَأَعِدُّوا .... ﴾ ولا بد من المال الذي يساعد على تحقيق هذه الأهداف حتى يكون الدين كله لله.

لا شك أن هذه الأمور أصعب على النفس التي تلجأ إلى أحلام اليقظة، وتستروح رفقة يؤيدون هذا الهروب ويشجعونه سواء أكان عن جهل، أو عن خفيات الهوى ونزغاته..

* * *

مَنْ .. للمشاريع العلمية والدعوية؟

بعُد العهد بالمؤسسات، التي كانت من أقوى الأسباب في استمرار التعليم الإسلامي والمدارس القائمة عليه، والتي استطاعت أن تمد المجتمع الإسلامي بطلبة العلم والعلماء، حتى في عهود الانحدار السياسي، ونسي الناس الأوقاف الإسلامية التي كانت مؤسسة كبيرة ساعدت في الحفاظ على البعد الحضاري ـ الاجتماعي للإسلام، وكان بإمكانها أن تستمر في أداء هذه المهمة لولا أن الدولة القُطْرية الحديثة ـ وغالباً ما كانت عسكرية ـ ساءها أن يكون للمسلمين مثل هذا العمل الاجتماعي فراحت تعيث فساداً بأوقاف المسلمين، ووجدتها فرصة لنهب الأراضي والأموال، وتلاشت الأوقاف شيئاً فشيئاً حتى لم يبق لها أثر.

كانت المدارس والجامعات العريقة في العالم الإسلامي تستفيد من هذه الأوقاف؛ فيتوافد الطلبة إليها من جميع الأقطار، وعندما دعم المسلمون هذه المؤسسات الكبيرة، إنما كانوا يعوِّضون بالتقصير الواقع من جانب الدول التي كانت غارقة في المنازعات والتهارش على الدنيا، ومع ذلك فإن هذه الدول لم تتجرأ على نهب الأوقاف كما تجرأت الدول الحديثة. وكانت هذه الأوقاف تمثل نوعاً من الحماية للمجتمع الإسلامي، ولذلك مرت على المسلمين قرون كان العالم فيها متقدماً، وقابل ذلك تدهور سياسي عجيب، واستمر تدريس العلوم الشرعية من غير أن يخضع للأهواء والأمزجة.

لم يقتصر نفع هذه الأوقاف على التعليم، بل تعداه إلى أمور كثيرة تتصل بحياة الناس ومعاشهم، ومن يقرأ عن مصارف هذه المؤسسات سيأخذه العجب من المدى الذي وصل إليه المسلمون في تقديم الخدمات الإنسانية.

إننا اليوم أشد حاجة مما مضى إلى مثل هذه الأعمال ذات النفع الدائم بإذن الله وذلك حماية للدعوة وتشجيعاً للعلم والبحث العلمي، ويجب أن نتذكر أن دعم التبشير النصراني والمؤسسات العلمية في أوربا إنما كان وراءه جمعيات كثيرة جداً، وكان من أثر هذه الجمعيات ظهور جامعاتهم المشهورة.

إن هذا الحديث عن وقف المال لمشاريع دعوية وعلمية، وإن كان موجهاً إلى كل المسلمين الغيورين إلا أنه موجه بشكل أخص إلى الدعاة الذين يتحملون عبء إيجاد مثل هذه الأعمال، وحتى لا تبقى الدعوة أسيرة لأشخاص يجودون أو يبخلون.

* * *

مزالق الطريق

ليس المصلح من يُعَلِّم الناس الخير، ويلقنهم حب الفضائل، ويتعلمون منه أنواع العلوم فيحفظونها ويطبقونها، ولكن من يحتاط ويحترس، ويخشى من زغل العلم ودخائل النفس وخباياها، فينبه إلى المزالق، ويقطع على تلامذته طرائق الفهم الخاطئ، أو وضع الكلام على غير مواضعه؛ وذلك لأن للنفوس عاهات تعتريها من شغف بالغرائب، وحب للظهور والتعالم، فالمربي هو الذي يحرس هذا العلم من أن تتلاعب به الأهواء فتحمله على ما تريد وتصل به إلى مدى لا تحمد عقباه، كما يحرسه من أنصاف المتعلمين الذين لم يرسخوا فيه.

وعندما تطلق العبارات العامة أو المجملة دون تخصيص أو تفسير فإن الناس يحملونها على غير محملها؛ وهذا ما يربك الأفهام، وخاصة إذا تعلقت بأمر من أصول العقائد كالولاء والبراء، أو الإيمان والكفر أو بالمفاهيم الأساسية للإسلام. ومن هنا ينشأ التفرق والاختلاف، وتتشعب الآراء والأفكار، وذلك لنقص العملية التربوية.

إن منهج الاحتراس وسد الكُوى منهج قرآني جاءت به آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ [الأنفال: ١٧].

وهو منهج نبوي، فقد كان ﷺ إذا تكلم يعيد الكلمة ثلاثاً لتُعْقَلَ عنه، ومن

صفة كلامه أنه بَيِّنٌ فَصْلٌ يحفظه من جلس إليه، وقد عَلَّم المسلمين التأدُّب مع الأنبياء حتى لا تقع منهم الهفوة ولو كانت غير مقصودة، قال ﷺ: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن مَتى» وعندما قال له رجل: يا رسول الله يا خير البرية! قال: «ذاك إبراهيم».

وهذا منهج سلفي، فقد خشي التابعي الفقيه عبيدة السلماني أن يضع الناس كتبه على غير مواضعها، فدعا عند موته إلى محوها ورعاً، وقد تكلم الحسن البصري بكلمة حملت على أنها مغايرة لمنهج أهل السنة، قال ابن عون: «لو علمنا أن كلمة الحسن تبلغ ما بلغت لكتبنا برجوعه كتاباً وأشهدنا عليه شهوداً، ولكن قلنا: كلمة خرجت لا تحمل».

إن في العالم الإسلامي اليوم نهضةً علميةً، وطلبة علم حريصين كل الحرص على تلقيه وحفظه، وهم حريصون على لقاء العلماء والمربين، فإذا لم يكن العالِم ربانياً عارفاً بدخائل النفوس، يعطي طالب العلم ما يحتاجه ويعيه كان عاقبة ذلك الغلو والتفرق، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وهذا أمر لا يسر من كان همه مصلحة الدعوة وانتشار الإسلام، وإذا كانت هذه الآفات موجودة في واقعنا اليوم، فكم نتمنى على المربين التنبه لها، وسد هذه الثغرة ليكون البناء سليماً.

مزالق الطريق (٢)

قلت في خاطرة سابقة: إن شبكة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين واهية ضعيفة، وإن لم تكن بعض حبالها قد تقطعت، ومن الظواهر البارزة التي يعرفها الجميع، مما يمارسه بعض العاملين في مجال الدعوة من سياسة (الإهمال) لإخوانهم، سواء أكان هذا عن عمد أو غير عمد.

وهي سياسة فاشلة من جميع الوجوه؛ لأن الأصل في عقد الأخوة المصارحة والمناصحة، والأمر بالمعروف والشفقة والرحمة، وتفقد الأحوال كما كان يفعل رسول الله ﷺ حين وصف بأنه يتفقد أصحابه، حتى أنه يسأل عن المرأة العجوز التي كانت تقُمُّ المسجد حين افتقدها.

وهي سياسة فاشلة لأن الأخ (المُهمَل) سيتألم جداً، بل ربما أصيب بعقد نفسية وإحباط شديد ـ وهذا قد وقع ـ إلا إذا كان قوي النفس، قوي الإيمان كما فعل كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عندما هُجِرَ من الرسول ﷺ والصحابة بسبب تخلفه عن غزوة تبوك، فقد كان يحضر الجماعة، ويسلم على المسلمين ولكن لم يكن أحد يرد عليه، وأراد ملك الروم استغلال ذلك، ولكن كعباً كان مستعلياً بإيمانه فصبر حتى جاء الفرج من السماء.

وهي سياسة فاشلة؛ لأنها تعني أن الدعوة لم تستطع معرفة الرجال ومعرفة القدرات والطاقات، ووضع كل إنسان موضعه، مهما يملك من قدرات قليلة.

وهي سياسة فاشلة؛ لأنها دليل على التخلف الحضاري والأخلاقي، ففيها روح الأنانية والفردية، فالذي يفعل هذا لا يبقى معه أحد، وكأنه يقول: أنا ومن حولي نكفي للدعوة.

إن هذا (الإهمال) ليس وليد هذه الأيام، بل هو من أمراض الدعوة في العصر الحديث، والحزبية والأنانية تغذيانه، وإن التحدي الذي يواجهه المسلمون يفرض عليهم أن يكفوا عن هذه السياسة البلهاء، وأن يستفيدوا من كل طاقة، وإن الوسائل الحديثة تساعد على تصنيف القدرات، وإذا لم يفعلوا فما هو إلا الهوى الذي يخفي وراءه التخلف والضعف . .

* * *

شبكة العلاقات الأخوية

ليس أغيظ للأعداء من أن يروا المسلمين المؤمنين متآلفين متآخين، وقد كان تماسك المجتمع الإسلامي الأول مما أغاظ المنافقين الحاقدين، وهذا دأب أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، ولذلك مَنَّ الله سبحانه وتعالى على رسوله بأن جمع قلوب المسلمين فقال: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣] إن نظرة إلى الساحة الإسلامية اليوم لا بد أن ترينا ضعف العلاقات الأخوية، وما يترتب عليها من انحسار الآمال وقلة المردود.

كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على الأخوة بين الصحابة، لايحب أن يعكر صفوها أو يضعفها كلمة جارحة، أو كلمة تُنقل، وقد علَّم المسلمين قاعدة في العلاقات الأخوية مخافة أن تقطع، فقال: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر». ومن حرصه ﷺ على هذه الأخوة ما قاله لأبي بكر رضي الله عنه في كلمة بدرت منه لبعض الصحابة، فقد حدث أن مرَّ أبو سفيان بن حرب بطائفة من المسلمين فيهم صهيب وبلال، فقالوا: ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لسيد قريش؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: «لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»، فقال لهم أبو بكر: يا إخوتي، هل أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أبا بكر.

ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث فيقول: لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله، لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله، والمعاداة لأعداء الله ورسوله[1].

---

(١) الفتاوى: ١٠/٥٨.

إن حقوق الأخوة كثيرة، ومنها: أن لا يكون في قلب الأخ سخيمة على أخيه، ولا يفشي له سراً، ولا يُماريه أو ينافسه، وأن لا ينقل له قَدْحَ غيره فيه، وأن يقضي حوائجه، قال بعض السلف: «إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها، فذكِّره ثانية فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبّر عليه واقرأ هذه الآية: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾.

ولا يكثر من العتاب، فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة، كما أن قلته دليل على قلة الاكتراث وكذلك الزيارة، فإن قلتها تعقب الجفوة، وتحل عقدة الإخاء.

إن تراكم الأخطاء في هذه العلاقات مما يشحن النفوس، ويوغر الصدور، ولذلك قال بعض علماء النفس المعاصرين: إن العقد النفسية ليست من داخل الفرد وإنما من العلاقات بين الأفراد.

فلماذا لا نحافظ على الأخوة في الله التي تذكرنا بالآخرة، والتي تخفف كثيراً من أعباء هذه الحياة الدنيا؟!

* * *

كونوا شامة في الناس

روى أبو داود بإسناد حسن من حديث ابن الحنظلية حين سأله أبو الدرداء أن يقول له كل يوم كلمة تنفعنا ولا تضرك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش».

أراد رسول الله ﷺ أن يغرس في نفس المسلم الذوق السليم في هيئته ورحله، وكل شؤونه؛ لأن المنظر القبيح منفر للنفس، باعث على عدم الارتياح، وكان رسول الله ﷺ يريد أيضاً أن تكون شخصية المسلم شخصية متكاملة، يعطي لكل حالة حقها، فهو حسن الثياب، حسن المظهر ـ دون إسراف ولا مخيلة ـ عندما تستدعي الأمور ذلك، ويلبس لباس المهنة عندما يكون في مصنعه أو متجره، ويلبس لباس الحرب عندما ترتفع راية الجهاد، ويلبس ما يناسب ذوقه وثقافته عندما يمارس الرياضة البدنية؛ ولكن التربية القاصرة وثقافة البعد الواحد التي سيطرت على المسلمين في عصور التخلف قد أبعدت المسلم عن هذه المرونة، فمنظره يثير الشفقة، أو يثير الاستهزاء من أعداء الإسلام.

أعرف أحد الدعاة، وقد تمكن من كثير من العلوم النافعة له في دنياه وآخرته، وأتقن عدة مهن يدوية، فكان الناس ـ حتى من خصومه في الفكر والمنهج ـ يسألونه المساعدة، فيبادر غير متوانٍ لخدمتهم، فكان لهذا أثر كبير عليهم، ومثل هذا الأخ الذي أخذ أهبته واستعد لكل حالة هو شامة بين الناس.

هل من المبالغة أو المثالية أن تتكامل شخصية المسلم فتجمع هذه الجوانب المتعددة: أخلاقاً عالية مع القريب والبعيد، مساعدة للناس، وأن يمثل الإسلام في

هيئته وكلامه وحركاته وسكناته..؟! لا، ليس صورة خيالية، وإن تعذر ذلك فوجود عدد من الشباب المسلم يكون محط أنظار أهل حيه وقريته وزملاء عمله سيكون له تأثير كبير في تقوية الدعوة الإسلامية.

إن المسلم ـ حقاً ـ هو (العملة النادرة) في هذه الأيام، وفي هذا العصر الذي كثر فيه الخبث، وكثر النفاق والمداهنة، وضُيِّعَت الأمانة، وعبد الناس بطونهم وشهواتهم، فكيف إذا كان هذا المسلم شامة بين الناس؟!

وإذا كان العرب قبل الإسلام يقولون عن الذي تعلم القراءة والكتابة وأتقن السباحة والرماية بأنه (كامل)، فكيف إذا كان صاحب دعوة ورسالة قد استجمع خلال الخير، وأتقن كثيراً من الأعمال، وبذل كل ما في وسعه لقضاء حوائج الناس؟!

* * *

أنماط من التفكير

يتهم الغربيون ـ والمستشرقون منهم بشكل خاص ـ يتهمون المسلمين بأنهم أصحاب (تفكير ذري) ويعنون بهذا أن الطريقة التي يواجه بها المسلم أمور الحياة هي أن يبحث كل قضية أو جزئية لوحدها، وبمعزل عن الجزئيات الأخرى فلا يتسنى له الإحاطة بالموضوع، ووضع الكليات العامة التي تجمع شتاته وتوضح علله ومقاصده، وهو ما يسمى عندهم (فلسفة العلوم) .

هذا ما يردده الغربيون – والحقيقة أن هذه التهمة تدل على خبث الطوية قبل أن تدل على السطحية أو السذاجة، وكأنهم يريدون تحطيم نفسية المسلم وإشعاره بأنه ليس على شيء؛ وذلك لأن أي دارس لتراث المسلمين سيرى العكس تماماً، وأن تلك الاتهامات هي محض افتراء، وإلا فمن الذي وضع أصول الفقه، وتكلم عن مقاصده؟ ومن الذي ضبط العلوم الإسلامية بأصول وقواعد مثل أصول التفسير، وأصول الحديث، وقواعد اللغة العربية؟

نعم إن هذا الذي قام به المسلمون كان في عصر المد الحضاري، وأما في العصور المتأخرة، وعندما أصيبت الأمة بالجمود والضعف، وضعف العلم والاجتهاد، فإن هذا المرض (التفكير الذري) قد تسرب إلى عقول كثير من المسلمين، وواقعنا اليوم يشهد على ذلك، وهذه أمثلة منه :

١ ـ رفع المسلمون ـ ومنذ عقود من السنين ـ شعار إصلاح الفرد، وأنه بعد ذلك سيتم إصلاح المجتمع والدولة، وكأن هذا الإصلاح سيتم بشكل آلي، ولكن عند النظرة الفاحصة تجد أن الأمر ليس بهذه السهولة؛ لأننا لا نستطيع إصلاح الفرد بمعزل عن التأثيرات الجانبية القوية التي تُصاغ بها شخصيته، فلا بد أن

تكون التربية وخطة الإصلاح والتغيير شاملة للفرد والأسرة والمجتمع، ولا بد من إحاطة الفرد بأجواء صحية أو قريبة منها حتى تستقيم لنا عملية التغيير.

٢ ـ بعض الشباب المسلم إذا سمع عن عالم كبير قد أتقن كثيراً من علوم الشريعة، يظن أن هذا العالم لا بد أن يجيب عن كل الأسئلة التي تدور على الساحة الإسلامية، بل يستطيع حل كل مشكلات المسلمين المعقدة وهذا ليس بالتأكيد، فقد يملك إجابات كثيرة وتفوته أشياء، وقد يكون متقناً لجوانب وضعيفاً في أخرى، ولا يعني هذا الانتقاص منه بأي حال من الأحوال، فعدم الإحاطة بمثل هذا الموضوع يجعل الشاب ينظر هذه النظرة الجزئية.

٣ ـ يحذر أحد الدعاة تلامذته وصحبه من إهمال الدعوة إلى الله، ويرفع شعار (لا تعطوا الدعوة فضول أعمالكم)، وهو شعار صحيح، ولكن هؤلاء التلاميذ يفهمون هذه النصيحة بأن يتركوا واجباتهم الأخرى، مثل الدراسة أو العمل أو بر الوالدين، مع أن الجمع بين كل هذه الواجبات ليس بالأمر العسير.

وقد سرى هذا الداء إلى مجموع الأمة، فلا نجد نظرات بعيدة المدى، ولا تخطيطاً شاملاً، بل كل فئة أخذت جزءاً من الإسلام وانشغلت به واستغرقت فيه، وشنعت على الفئات الأخرى ما تقوم به، وإن الإحاطة بمفهوم هذا الدين ومقاصده الكبرى لإصلاح البشرية، مما يسهل إنشاء الدعوة، وقبول الناس لها وإن المسلم ليملك القابلية لأن يستوعب شمولية الإسلام، ولكن أين التربية المتكاملة؟!

* * *

أو خير هو؟

جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قام فخطب الناس، فقال: «لا والله ما أخشى عليكم ـ أيها الناس ـ إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا، فقال رجل: يا رسول الله أيأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ساعة، ثم قال: كيف قلت؟ قال: قلت: يا رسول الله! أيأتي الخير بالشر؟ فقال رسول الله: إن الخير لا يأتي إلا بخير، أوَ خيرٌ هو؟ إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يَلم...»[1]، أراد رسول الله ﷺ أن يحذر المسلمين من فتنة المال، وهي فتنة كبيرة، إلا من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فالمال خير، كما سماه الله سبحانه وتعالى في القرآن، ولكن الحريص عليه والشره في جمعه هو الذي يهلك، كما أن نبات الربيع خير؛ ولكن الحيوان الذي يأكل بصورة خاطئة هو الذي يُصاب بالتخمة (ويقتل حبطاً) فالمشكلة في طريقة تناول الخير، وطريقة أخذ الأشياء بقواعدها وأصولها السليمة. إن العلم خير، ولكن إذا أُخذ كمعلومات للتكديس، ولم يتحول إلى ما ينفع الناس في الدنيا والآخرة، ولم يتحول إلى أداة لتغيير واقع المسلمين المحزن، فإنه سيكون وبالاً على أصحابه، وقد قال حكيم لرجل يستكثر من العلم دون العمل: يا هذا إذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمن تقاتل؟!

والعلم خير، ولكن ما الفائدة من تسويد مئات بل ألوف الصفحات حول مشكلة انتهت ومضى عهدها، وليس لها وجود في واقعنا اليوم، وما الفائدة من تأليف عشرات الكتب في موضوع واحد دون إضافة جديدة، أو إبداع يستحق

---

(١) مسلم: كتاب الزكاة، ج ٢، ص ٤١٩، طبعة دار الكتب العلمية.

القراءة، بل يتهالك بعضهم على التأليف، وتأتيهم شهوة الكتابة عندما يرى مؤلفاً ناجحاً فينسج على منواله تقليداً بحتاً، يلفقه من هنا وهناك دون عناء أو تعب، ورغم أن كمية المقروء في العالم الإسلامي (٣,٦) كيلو غراماً من الورق مقابل سبعين كيلو غراماً للفرد في الغرب، وكمية المطبوعات (٢٩) عنواناً لكل مليون من السكان في العالم العربي مقابل (٤٨٨) عنواناً في العالم الذي يسمونه متقدماً، كما جاء في إحصائيات اليونسكو، ورغم هذا الكم القليل فإن المشكلة في مضمون هذا القليل وضحالته، فالأمية الثقافية ضاربة أطنابها، وطرق التعليم ووسائل التنفيذ لم تؤهل الفرد ليبدأ طريق العلم الصحيح، وقد وصلتني أخيراً رسالة من صديق يشكو هذا الكم من الكتب التي غناؤها قليل ويذكر أمثلة على ذلك «الأحوال المطلوبة في رؤية المخطوبة» و «فصل الخطاب في رؤية الخُطَّاب»... الخ:

لم يؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية تفسيراً كاملاً للقرآن؛ لأنه لا يريد أن يكرر شيئاً قد كُتب عنه، مع أن التفسير كان أحب علم لديه كما يذكر هو عن نفسه، ولذلك علق واستدرك على تفسير بعض الآيات والسور التي رأى أنها بحاجة إلى زيادة بيان. إن العلم خير، ولكن كثرة التعريفات والاختلافات وكثرة الردود والمهابشات العلمية، مما يربك أذهان الناس ويجعلهم في حيرة من أمرهم، وبخاصة ذلك الناشئ المقبل على الله، والمقبل على الدعوة، ولهذا كتب ابن الجوزي (تلبيس إبليس) حتى لا يُخدع طلبة العلم، وتصيبهم آفات الطلب والتأليف.

* * *

نشأة أخرى (١)

احتار المصلحون في أمر هذه الأمة، فمنذ قرن ونيف والسؤال يتكرر: أين الخلل؟ وما هي العلة؟ ومن أين يبدأ الإصلاح؟ ووصل الحال بأحد زعماء المسلمين في أول هذا القرن ـ وقد استقر به المقام في المدينة النبوية ـ أن يجأر بالشكوى ويقول: «لا يتحرك المسلمون حتى يتحرك جبل أحد من مكانه».

إن هذه الشكوى لها ما يسوغها، فهذه الأمة ليست أمة مستأنفة تبدأ طريقها من جديد، بل هي امتداد لأمة بدأت في عصر الرسالة، فهي تحمل بذور نهضتها، ولكنها تحمل أيضاً أعباء سنين متطاولة من التخلف والضعف والتفرق، وجاءت آثار التغريب في العصر الحديث فزادت الأمور تعقيداً فكيف نخلّص الفرد المسلم من هذه الأدواء، وننشئه نشأة أخرى ليعود إنساناً فعالاً صالحاً مصلحاً؟

لقد حام حول هذا الموضوع كثير من المصلحين الذين يريدون بالأمة خيراً، فمن مقرب ومن مبعد، ورفعت شعارات صحيحة، ولكنها تصف أعراض الداء ولم تكشف عن العلة، فعندما يقال: إن الخلل جاء من البعد عن شريعة الله، فهذا صحيح، ولكن لماذا يسكت المسلم عندما يطبق شرع غير شرع الله؟ ولماذا يستسهل هذا الأمر، ولا يدافعه مع خطورته الشديدة؟ ما سبب ضعف شخصيته حتى يقبل بما هو واقع؟

لا شك أن العطب جاء من قِبَلِ ضعف العقيدة، وعدم وضوحها، ومن ضعف الإيمان وخلل في تصور الولاء والبراء؛ ذلك لأن حرارة الإيمان هي التي تدفع بالسلوك والخلق إلى أعلى مراتبه، وهي التي تساعد على قوة الصعود وعدم التنازل عن تطبيق شرع الله مهما كلف الأمر، بل هي التي تحرق المراحل وتذيب العقبات من

طريق الدعوة.

وإن قوة الإيمان، وفهم العقيدة السليمة، هو الذي ينتشل المسلم من أوضار الجاهلية بشتى أصنافها ومسمياتها، إلى آفاق الرشد والشهادة على الناس وعالمية الإسلام، وهو الذي جعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: «بلال سيدنا وأعتقه سيدنا»، بينما نجد العصبية والحزبية تنخر في صفوف المسلمين الذين يريدون حمل الدعوة، فكيف بغيرهم؟

قد تعيش أمم بعقائد واهية سخيفة، وقد يعتريها أزمات في هويتها ومبادئها ثم تستأنف حياتها، ولكن الأمة الإسلامية أمة نشأت على الدين وقامت بالدين وهو الذي صنعها وحضَّرها، وعندما يحدث خلل في الدين تقع الكارثة، وتحدث الشروخ في جميع مناحي الحياة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتصبح الأمة حائرة بائرة مرعى لكل راع، يسومها الخسف وسوء العذاب.

كيف نرفع من وتيرة هذا الإيمان حتى يعود إلى اتقاده وفعاليته؟ ويكون كالآتي الذي لا يقف أمامه شيء؟ وكيف يعود إلى العقيدة صفاؤها وأثرها العملي ولا تكون مماحكات في الكتب والأذهان؟ هذا ما يجب أن تتجه إليه الهمم، وهذا ما يجب أن تُربى عليه جماهير المسلمين.

* * *

نشأة أخرى (٢)

الإيمان الغامر، والتوحيد الخالص، الذي يملأ النفس يقيناً، فلا تتفرق ولا تتهافت أو تضطرب، هو الذي يرفع المسلم ليكون (صاحب رسالة)، وهو الذي يدفعه لاستصغار الأهوال والخطوب، ويعطيه قدرة على الصبر والاحتمال، ويستكبر على الشهوات، ويعلو على العصبيات، فيكون همه الذي يقيمه ويقعده، هو انتصار هذا الدين.

المؤمنون حقاً هم الذين دفعوا بالمد الإسلامي الأول قوياً، حتى كاد أن يغطي المعمور من الأرض، وعاشت أجيال من بعدهم على قوة هذا الدفع، عاشت أجيال بقوة إيمان مثل أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ الذي لا يعبأ بنفسه وإنما كان همه الأول هو هذا الدين، ولذلك قبل بإمرة عمرو بن العاص في غزوة (ذات السلاسل)؛ لأن الرسول ﷺ قال له: «تطاوعا ولا تختلفا».

وإيمان خالد بن الوليد هو الذي جعله يقبل بأن يكون تحت إمرة أبي عبيدة بعد أن كان القائد العام للجيوش الإسلامية في الشام، والحرص على الدعوة ووحدة الصف هو الذي جعل الصحابي الجليل أبا برزة الأسلمي يتألم من القتال الواقع بين بني أمية وعبد الله بن الزبير ويقول: «إني أحتسب عند الله أني أصبحت ساخطاً على أحياء قريش، وإن هذه الدنيا هي التي أفسدت بينكم».

ونحن ـ والله ـ قد أصبحنا ساخطين على هذا الذي يجري في أفغانستان حيث لم تراعَ مصلحة المسلمين وسمعة الإسلام، ولم يُقْبَلْ صلح أو تعاون أو مشورة، وأما ما يجري من القتال بين المسلمين ـ من القتال بالكتب لا بالكتائب ـ من الذم والثلب وتصنيف الناس، والولوغ في أعراض الدعاة الصادقين، وما يجري

من الشقاق والبغضاء لأتفه الأسباب، فلا شك أنه من الأهواء والأنانيات.

ما الذي يقضي على آفات النفس، من الحسد والبغي، وحب العلو والرئاسة، أو الوقوع في سفاسف الأمور وترك معاليها؟ ليس غير الإيمان الذي يملأ الجوانح ـ هو الذي يقضي على هذه الآفات ـ الإيمان بالله الذي يعلم هذه النزغات، والإيمان باليوم الآخر، حيث يلاقي الإنسان ربه، وليس غير حب هذا الدين والرغبة في أن يطبق في الأرض، وأن يهيمن ويعلو، ويستظل الناس بخيره وعدله.

ومن هنا ندرك مدى دلالة وعظمة قول الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، فإنه من الجدير بالتأمل أن العمل الذي يقوم من بدايته على نية صادقة وسنة ماضية، فإنه يكون قوياً مستمراً بإذن الله، وإن كان غير ذلك فإنه مُنبتٌ يعود لأصله وجذره ولا يُبَارَك فيه، ولهذا قال عالم الأمة عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «أنتم أكثر أعمالاً من أصحاب محمد ﷺ وهم أفضل منكم ذلك لأنهم كانوا أبر قلوباً...» فالحياة هي حياة القلب، والموت هو موت القلب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

* * *

سددوا وقاربوا

جُبِلَ الإنسان على النقص والضعف، فربما أبرم اليوم أمراً يفكر غداً في نقضه أو إصلاحه وتعديله، وعندما يضع البشر قانوناً من عند أنفسهم لتيسير شؤون حياتهم، سرعان ما يكتشفون أن فيه ثغرات لا بد من إصلاحها، أو أنه يكبلهم بجزئية من جزئياته، ومن ثم يبدأ الالتفاف عليه، أو تفسيره بما يتناسب مع أغراضهم.

نقول هذا لأنه عندما أراد المسلمون في هذا العصر ترتيب أمور الدعوة ترتيباً إدارياً، أخذوا من البيئة التي حولهم، فكانت هذه (التراتيب) بحاجة إلى إعادة النظر بين كل فترة وأخرى، للبحث عن عيوبها، وما هي أوجه النقص فيها، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، ووجد المسلمون أنفسهم أسرى لقوالب جامدة، وشكليات صنعتها أيديهم، لم يستطيعوا التخلص منها، وكان الواجب أن يستفيدوا من صياغة التشريع الإسلامي كما أنزله الله سبحانه وتعالى؛ لأننا سنجد فيها دائماً مساحة ومرونة لزيادة العمل، كما نجد فيها حداً أدنى وحداً أعلى، قال تعالى عن حال الدائن والمدين: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] والدفاع عن النفس ضد الظلم حق، ولكن التحمل والمغفرة أجمل: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

لماذا لم يستفد المسلمون من هذه السنة في تدبير الخلق، حتى كان من آثار هذا الجمود والضيق أن عُطلت طاقات، وأهدرت إمكانات؟ فكم من شاب متحمس أو داعية له قدم راسخة لم يستفد منه لأن طرائق العمل لا تستوعب الجميع، ولم يكتف المسلمون أنهم ضعاف في اكتشاف الطاقات الفاعلة، بل زادوا على ذلك

أنهم خسروا كثيراً ممن عندهم خير وعلم، وقراءة في تاريخ الدعوة الإسلامية المعاصرة تنبئك عن العشرات والمئات الذين لم تستوعبهم الدعوة، ربما وجدوا أنفسهم أمام طريق مسدود، فاختار بعضهم القيام بجهود فردية، ومنهم من أصابه الفتور وآثر العزلة.

يقول بعض المفكرين: «إن من أسباب تقدم الإنجليز على من سواهم من الشعوب الأوروبية في بداية نهضتهم هذه، المرونة في تنظيماتهم وكل شؤون حياتهم، فنراهم دائماً يتركون مساحة للتحرك من خلالها ومحاولة التخريج والاجتهاد».

هذا ما توصلت إليه عقولهم البشرية، أما المسلمون الذين يحملون فكرة التجديد فهم يستهدون بالسيرة النبوية وأسلوب الرسول ﷺ في معاملة صحبه الكرام، ويتأملون أسرار نزول القرآن منجماً خلال ثلاث وعشرين سنة، وكيف تربى المسلمون من خلال هذا التنزيل، وإذا فعلوا هذا فإنهم سيصلون إلى نتائج طيبة بإذن الله.

* * *

﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾[1]

يشتكي كثير من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية من ظاهرة الفتور[2] التي تفشت في السنوات الأخيرة، واعتورت كثيراً ممن كان يرجى نفعه ويؤمل خيره، وإذا كانت هذه الظاهرة طبيعية أحياناً لما جُبل عليه الإنسان من الضعف فإنها تبدو غير ذلك عندما تتكرر وتستمر، وعندئذ فهي جديرة بالتأمل ومعرفة الأسباب والدوافع، وإن من أكبر أسبابها ـ والله أعلم ـ عدم التجديد في العمل الإسلامي، والانتقال به من مرحلة إلى أخرى: من حالة الضعف إلى القوة، ومن قلة العلم إلى الرسوخ فيه، ومن التأصيل النظري إلى الواقع العلمي، ومن التخطيط الجزئي إلى التخطيط الشامل؛ فإن هذا مما يرفع الروح المعنوية عند المسلم، بل ويزيد إيمانه، وعندها يكون أقوى على دفع عملية التغيير فهي علاقة جدلية ـ كما يقال ـ وإن ما نراه أحياناً من الجمود على فكر معين قاله أحد الدعاة أو المفكرين قبل عقود من السنين، يدعو إلى الأسف، فما يصلح لفترة الأربعينات والخمسينات قد لا يصلح اليوم، وما كُتب في تلك الفترة وما بعدها بقليل حول الاجتهادات في أساليب الدعوة، أو طرح بعض الشعارات ليس كله صحيحاً، وهؤلاء الدعاة وإن كان لهم فضل السبق، ولكن الحق أحق أن يتبع، وقد رأينا عجباً ممن يتصدى للدعوة، يقول لك: قال فلان، وكتب فلان، وكأنه لم يزدد منذ عشرين سنة حرفاً من العلم، ولا يدري ماذا جَد على الساحة الإسلامية.

---

(١) سورة الفرقان آية ٣٢.

(٢) ونعني بها: التراخي والتباطؤ بعد الجد والنشاط، فتَهِن العزيمة عن المضي قدماً لعارض يمنعها، وانظر ما كتبه الشيخ الدكتور ناصر العمر حول هذه الظاهرة في كتابه: الفتور والأسباب والعلاج.

وإذا تتبعنا حال الدعوة في عصر الرسالة نجد أنها في تقدم مستمر، ليس فيه تراجع، فالمسلمون يزدادون عدداً، والدعوة تكسب شخصيات مهمة وتجد لها ملجأً آمناً في الحبشة، ويتعاطف معها بعض أشراف قريش في حصار الشِّعب، ثم تأتي بيعة العقبة الكبرى منعطفاً مهماً للدعوة، فالهجرة إلى دار الإسلام (المدينة) .

كان رسول الله ﷺ ينقل المسلمين خطوة خطوة على طريق التمكين؛ فالمرحلة المكية كانت إعداداً للمرحلة المدنية، بل كل مرحلة سواء أكانت في الفترة المكية أو المدنية كانت نقطة انطلاق إلى ما بعدها، وكلما مارس الفرد واجباً ازداد قوة واستعداداً، وقويت آماله، وشعر بالرغبة في العمل، وكان القرآن ينزل منجماً ليثبت قلب الرسول ﷺ ويعيش المسلمون مع القرآن واقعاً عملياً، يُقوّمهم وينتقل بهم في عملية تربوية إلى الحال التي وصل إليها الصحب الكرام .

إذا كان الإسلام هو الحق وغيره هو الباطل، فلماذا وجد هذا الواقع الذي نحن فيه لولا أن في الأمر خللاً في معرفة وجوه المصالح والمفاسد، ونقصاً في القيادات التي تنقل المسلمين إلى المرحلة المناسبة، ولعله عندئذ تُشفى صدور قوم مؤمنين .

* * *

الفرج بعد الشدة

هذا العنوان من الكلام المحبب عند الأقدمين، وقد ألفوا فيه الكتب وجمعوا حوله الفصول، تُرى لماذا هذا الاهتمام، وأي باعث للكتابة في هذا الشأن؟ لا شك أن الشدائد التي لاقاها المسلمون ـ وخاصة ما بعد القرن الرابع ـ هي السبب في هذا، سواءاً كانت شدائد داخلية من الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، أو كانت خارجية مما أصاب العالم الإسلامي من الغزو الخارجي المدمر، وهذا ما حدا بالقاضي التنوخي أن يكتب المجلدات حول (الفرج بعد الشدة) .

إن ما ابتلي به المسلمون في السنوات الأخيرة من الحيف الواقع بهم والحرب الإعلامية الحاقدة التي تشن عليهم صباح مساء؛ ما يجعل هذا العنوان محبباً إلى المسلم المعاصر أيضاً، ويجعله يردد مع الشاعر:

فاصطبرْ، وانتظرْ بلوغَ مَداها فالرزايا إذا توالَتْ تولَّـــتِ

إننا لا نستطيع الإغراق في التفاؤل؛ وربما لأن الأمور لم تبلغ مداها بعد ـ وخاصة من جانب الصبر والإعداد المطلوب من المسلم ـ ولكن مما يبشر بخير أن المسلمين ـ رغم الواقع الأليم ـ قد أصبحوا رقماً صعباً في المعادلة السياسية الداخلية والدولية، وعاد بعض أشد الأعداء ليقول: يجب أن نتعايش مع هؤلاء، ونفكر بطريقة عقلانية للتفاهم معهم... وشيء آخر هو هذه الحرب الإعلامية التي نرى فيها السُمَّ الناقع، لهي دليل على تعاظم قوة الإسلام وشعور الأعداء بالخطر من جهته.

عندما يستطيع المسلمون الوصول إلى نقطة (الحرج) مع أعدائهم، فمعنى هذا أن كفة الميزان بدأت تميل لصالحهم، فكفار مكة عندما شعروا بالخطر بدأوا بوضع

العراقيل أمام هجرة المسلمين، فمرة يحجزون أموالهم، ومرة يحجزون زوجاتهم وأولادهم، ودبروا قتل الرسول ﷺ أو إخراجه أو سجنه، وعندما علموا بهجرته تشنجت أعصابهم ووضعوا الجوائز لمن يأتي به حياً أو ميتاً ولكن من رحمة الله بعباده أن لا يوصلهم إلى مرحلة اليأس والطريق المسدود، فيذلوا وينكسروا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، وقد جاء في تفسيرها: لن يغلب عسر واحد يسرين، ومن ظن أن الله يسلط أعداءه على رسله تسليطاً دائماً، فقد ظن ظن السوء، كما يقول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ، فهل يتقدم المسلمون خطوة أو خطوات حتى يستحقوا (الفرج بعد الشدة) وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

* * *

بين المداراة والمداهنة

إن الفرق كبير بين المداراة والمداهنة، فالأولى سنة، والثانية معصية. والمسلم الذي يتصدى لدعوة الخلق، وتعليمهم، وهدايتهم لطريق الحق، سوف يلقى كثيراً من العنت، وكثيراً من الأذى، وسيجد بالمقابل أصنافاً من الناس فيهم خير مشوب بجهل، أو غفلة، فإذا صبر على أمثال هؤلاء، واستعمل المداراة على وجهها الصحيح، فإن العاقبة له بإذن الله، وما المداراة إلا حسن العشرة غير مشوبة بمعصية، أو كما وصفها الشيخ رشيد رضا بالكياسة التي لا تهدم حقاً، ولا تبني باطلاً، وحتى يكون للداعية أثره، وشخصيته المتميزة، لا بد أن يبتعد عن المداهنة، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق، أو يرده إليه، أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليُقره على الباطل، ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق»[1].

والدليل على المداراة ما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام: قلت: يا رسول الله! قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام! قال: أيْ عائشةُ، إنَّ شرَّ الناس مَنْ تركه الناس، أو وَدَعَهُ الناس اتقاء شره»[2] وفي البخاري في كتاب الأدب، ما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «إنا لنكشِّر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم»[3].

---

(١) ابن الأزرق / بدائع السنن ٢ / ١٧ والكلام لابن القيم.

(٢) البخاري كتاب الأدب، حديث ٦٠٥٤. ومسلم، كتاب البر، حديث ٢٥٩١.

(٣) ذكره البخاري في ترجمة باب المداراة مع الناس، ورجح ابن حجر انقطاعه، الفتح ١٠ / ٥٥٤.

قال العلماء: «ما كان من أمر الدين، مثل أن يفتي بغير الحق أو يكذب أو يترك شيئاً من الواجبات، فهذه مداهنة محرمة، والمداراة مثل أن تعطيه مالك أو تحسن إليه..»[1]. ويفصل ابن بطال أنواع المداراة حتى يكون المسلم على بينة من أمره؛ فيقول: «والمداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، فالمداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه»[2].

وإذا فقه المسلم حديث رسول الله ﷺ، وكيف أنه استعمل المداراة ليعلم المسلمين آداب الدعوة، مع أن الله سبحانه وتعالى عصمه من الناس، وإذا فقه أقوال العلماء الذين نقلنا عنهم، فسوف يتألف أناساً، أو يبعد شر آخرين، وأما الفظُّ الجَوَّاظ فلا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع، وهذه هي الدنيا بصفوها وكدرها.

* * *

(١) العواصم والقواصم ٨/ ١٨٥.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٥٤.

منهج الاعتدال

هل تستطيع الدعوة الإسلامية القضاء على هذا التشرذم والتفتت الذي أضر بالعمل الإسلامي أيَّما ضرر؟ وعلى هذه النوابت التي ما تفتأ تظهر بين الحين والآخر، ويغلب على كثير منها الغلو في الدين، مما يدع الناس حيارى لكثرة ما يلقى إليهم من خلاف في الدين واجتهادات ما أنزل الله بها من سلطان، ويحق للمسلم أن يسأل عن سبب كثرة هذه الظواهر في السنوات الأخيرة، وهل هذا شيء طبيعي؟!

إن ظاهرة الغلو أو التساهل في الأوامر والنواهي، نشأت قديماً وربما يكون هذا من طبيعة الإنسان الذي لا يقهر نفسه على منهج الاتباع والاعتدال والوسطية، ففي التشدد والتساهل أهواء نفسية، وطموحات دنيوية، وجهل بأسس هذا الدين ومقاصده العامة، وإنما تكثر هذه النوابت عندما يضعف العلم ويقل العلماء، وإن كان العلم متيسراً ومنتشراً في هذه الأيام ـ ولله الحمد ـ ولكن العلماء المستقلون الذين يجمعون بين العلم والتقوى ويكونون مرجعاً للمسلمين وللشباب خاصة، هؤلاء قلة قليلة، وقد تخلو منهم بعض الأقطار.

وإذا أردنا الاستفادة من الماضي فهناك تجربتان تدلان على أنه عندما يوجد العلم والتطبيق العملي للإسلام، فإن ظاهرة الغلو تضعف إلى حد بعيد؟

١ ـ عندما انحاز الخوارج عن علي ـ رضي الله عنه ـ استأذن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في مناقشتهم وتبيين الحق لهم، فذهب إليهم وسألهم عن سبب مخالفتهم، ورد عليهم شبهاتهم من القرآن والسنة وتراجع عدد كبير منهم عن بدعتهم، وعادوا إلى صفوف أهل السنة.

٢ ـ استمرت بدعة الخوارج زمن بني أمية، ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ حاورهم وكان عالماً ربانياً، ولما لم يجدوا في سلوكه وتصرفاته منفذاً للنقد أو الاحتجاج ـ كما كان في تصرفات بعض من سبقه ـ أقروا له بكل ما قال، إلا ما كان من موافقته بأن يكون الخليفة بعده «يزيد بن عبد الملك»، فوعدهم ببحث هذا الأمر، ولكن المنية وافته قبل أن يتمه.

نخلص من هذين المثالين إلى أن العلماء الراسخين في العلم، هم الذين يكشفون الشبهات، ويبينون حكم الإسلام في كل مسائل العصر، ويجيبون عن كل الأسئلة التي تقلق بال الشباب المسلم، وأن على الدعوة الإسلامية القيام بخطوات عملية جادة لتقوية جبهة الإسلام علمياً واجتماعياً واقتصادياً، فلعل من عنده بقية من دين أو عقل يثوب ويرجع وتهدأ نفسه، فالإنسان مجبول على الميل لمن يأخذ بيده لحل مشكلات الحياة التي تواجهه، فهكذا رجع الخوارج عندما شاهدوا التطبيق العملي في سيرة عمر بن عبد العزيز، وسيبقى أصحاب الأهواء يستمرئون أعراض المسلمين، ويخوضون معارك وهمية، ويُذهبون أوقاتهم في جدال لا خير فيه، فهؤلاء لا يؤبه لهم، والقافلة تسير بدونهم.

* * *

أهل مكة أدرى بشعابها

هذا المثل المشهور يجبهك به بعض الناس عندما تبدي وجهة نظرك في أحداث معينة، أو تناقش فكرة تخالف فيها ما هو واقع في بلد من بلدان العالم الإسلامي، وأنت لست من أهله، فهل يصح إطلاق مثل هذا المثل في واقعنا اليوم؟ وهل تُحلّ مشكلة كبيرة بمثل هذا التبسيط، حيث لا داعي للمشاركة والاستفادة من آراء الآخرين أو المخالفين؟

لا يشك أحد في وجود خصوصيات معينة لكل بلد سواء من ناحية جغرافيته أو طبيعة سكانه أو مستوى ثقافته، لكن ما حجم هذه الخصوصية أمام كثير من الأحوال المتشابهة: الاجتماعية منها والاقتصادية والسياسية؟

إن الخصوصية تمثل نسبة قليلة، فلقد عاشت معظم شعوب العالم الإسلامي ظروفاً واحدة، والتخلف الحضاري يلفها جميعاً، ولم تتمكن حتى الآن من العودة لهويتها وأصالتها وإلى الدين الذي يرقيها معنوياً ومادياً، وقد تسلطت أوروبا على معظم هذه الشعوب في القرن الماضي، وجعلت أرضه مِزَقاً وأوزاعاً، وفرضت مناهج للتعليم خرجت أجيالاً ممسوخة العقل والفكر، فَلا دنيا أقامت، ولا رجعت إلى دينها الذي هو مبعث حضارتها وعزها، فالمشكلات واحدة والهموم واحدة، فهل هناك خير في نقل الخبرات والتجارب، وقد وقعت أحداث في المشرق كانت جديرة بالتأمل والدراسة وأخذ العبرة، وحدثت أمور في المغرب كان حَرِيًّا بأهل المشرق أن يستفيدوا منها.

لقد ذكر القرآن الكريم قصص أقوام لنعتبر بها وهم بعيدون عنا زماناً، وقد مَرَّ على المسلمين زمن كان من مميزات طلب العلم الرحلة إلى الأقطار المجاورة لزيادة في

العلم أو الخبرة ومعرفة أحوال المسلمين، بل إننا نجد في أيامنا هذه من أذكياء المجتمعات الغربية مَنْ يصف ويحلل بعض مشاكل المسلمين وكأنه يعيش بين ظهرانَيْهم، فلماذا يحرم المسلمون أنفسهم من خبرات متراكمة لمقولة يقولها إنسان لم يتعود على التفكير العميق، وعلى التأمل في سنن الاجتماع البشري التي ذكرها القرآن، وإذا كان الحاضر أشبه بالماضي، أفلا تتشابه أحداث وقعت في زمن متقارب؟ ولا أظن أن مثلاً هنا وشعاراً هناك يحل مشاكلنا المعقدة التي تحتاج إلى دراسة وحوار ومشاركات للرأي تعقد لها ندوات ومؤتمرات حتى تتضح القضايا، ويبين السبيل.

وإذا كان أهل مكة أدرى بشعابها، فليس من الضروري أن يكونوا أدرى بظروفها وما يحيط بها، وبطبيعة الصراع الذي يدور في العالم اليوم، ولقد رمى عمر بن الخطاب رضي الله عنه داهية الروم بداهية العرب عمرو بن العاص رضي الله عنه ونحن تحاصرنا الشعارات العامة والأمثال المضروبة، وقد تحولت الدنيا إلى قرية كما يقولون.

* * *

أنماط التفكير (٢)

إن من هداية القرآن للمسلمين أن يصحح لهم طرق التفكير، ويسددهم إلى الوسائل الصحيحة للفهم والتجديد، حتى لا يسيروا في مَهَامِهَ ثم ينكصون، أو يغزلون غَزْلاً ثم ينقضون.

وجّه القرآن الطاقات الفكرية للمسلم كي يتعلم ويبحث فيما يفيده في دنياه وآخرته، فلا يعوقه عن حركته أو يأسره عن انطلاقته أحداث جرت ومضت، يقف عندها لا يحور ولا يكور؛ ويستغرق فيها لتشغله عن واجبه في الحاضر وتطلعه إلى المستقبل، ومن الطبيعي - بل ربما يكون من الواجب - الوقوف عندها لأخذ العبرة والتعلم من دروسها، وشيء آخر لا بد من ذكره وهو أن الكلام هنا ليس عن الماضي الذي تركه لنا علماؤنا من عصر السلف وحتى يومنا هذا وما فيه من علوم شتّى، وخاصة ما تعلق منها بشرح وفهم نصوص الوحيين، فإن بعض الناس يتكلم بخبث ومكر، ويدعو لترك الماضي من هذا الجانب، وترك الأصول والمنهج، أو تفسيره حسب أهوائهم، وإنما نتكلم عن أحداث معينة أو أشخاص معينين، والتركيز عليهم دون الاشتغال بما ينفع في حاضر المسلمين.

عندما يقول قائل: ما بال علي ومعاوية رضي الله عنهما؟

نقول كما ذكر عن بعض العلماء: تلك أحداث لم نشهدها، وقد مضت ولا نخوض فيما شَجَرَ بين الصحابة، والقرآن والسنَّة موجودان والحمد لله بين أيدينا، أما الوقوف عند هذا الحدث لاستخلاص الدروس فهذا شيء طيب، وقد قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وإذا جاء الآن من يقول: ما بال سيد قطب والمودودي ورشيد رضا وابن

باديس... إلخ، نقول: أولئك دعاة وعلماء قد مضوا إلى ربهم ونأخذ ما عندهم من صواب وندع أخطاءهم.

وإذا قرأنا عن معارك العلماء السابقين مع بعض الفرق المنحرفة؛ فهل نتقمص شخصياتهم ونقوم بالدور نفسه؟ أم أن هناك تيارات خطيرة جداً لم تكن موجودة في حياة أولئك العلماء ويجب مكافحتها، مثل التيار العلماني الذي يكيد للإسلام كيداً تندك منه الجبال؟

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]: «قول موسى عليه السلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ يحتمل أن يكون موسى صرفه عن الخوض فيما لا يجدي في مقامه ذلك الذي هو المتمحض لدعوة الأحياء، لا البحث عن أحوال الأموات الذين أفضوا إلى عالم الجزاء..»[1].

إنني أخشى أن تكون عملية الاستغراق في الماضي هروباً من تبعات الحاضر، أو أن يكون التمسك ببعض الآراء والأشخاص نوعاً من الاحتمال والدفاع لأننا لم نستطع الهجوم والاستفادة من الأحداث لصنع الحاضر، مع أن الواجب التكلم عن كل الأخطار التي تحيط بالمسلمين، ومن الواجب إرجاعهم دائماً إلى نقاء التوحيد وفهم واستنباط القرون المفضلة، واتخاذ هذا منهجاً وطريقاً لمعالجة مشكلات المسلمين، والعيش معهم في واقعهم، ولو كان هذا يكلفنا أكثر، أو يضع على عاتقنا مسؤوليات أكبر.

---

(١) الشيخ الطاهر بن عاشور ٨/ ٢٣٤.

وإخوانهم يمدونهم في الغي

ليس غريباً أن يلجأ العلمانيون في معرض التشغيب على الإسلاميين إلى التهمة المكررة المعتادة: «أنتم تريدون الحكم، وتستخدمون الدين وسيلة لهذا الهدف»، وليس غريباً أن يعيدوا الكلام البارد الغث عن (الإسلام السياسي) و (الأصولية) مما يجترُّونه وينقلونه عن الكتابات الغربية، ويظنون أنهم بهذا التهويش الإعلامي إنما يضعون الإسلاميين في الزاوية الحرجة.

إن هذه التهمة ليست جديدة على مسامع الدعاة إلى الله، فإن للمعاصرين من العلمانيين سلفاً في ذلك ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، إنهم ملأ فرعون حيث يذكر القرآن هذا الحوار بينهم وبين موسى ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٧، ٧٨]، قال في تفسير المنار: «هذا استفهام وتوريط وتقرير، فحواه: أتقر وتعترف بأنك جئتنا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من الدين القومي الوطني، لنتبع دينك، وتكون لك ولأخيك كبرياء الرئاسة الدينية وما يتبعها من كبرياء العظمة والملك الدنيوية في أرض مصر كلها، يعنون: أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا وإن لم تعترف به اعترافاً»(١).

أليست هذه مقولة علمانيينا حذو القذة بالقذة؟ ترى ما الذي أعطى لهؤلاء الحق في الحكم ومنعه عن الإسلاميين؟! ولماذا السياسة حلال لهم وحرام على غيرهم؟! وما هي مؤهلاتهم لسياسة الخلق لما فيه مصلحتهم؟ وماذا قدموا لهذه

---

(١) تفسير المنار: ١١/٤٦٦.

الأمة طوال عقود من السنين تربعوا فيها على سدة الحكم في أكثر أنحاء العالم الإسلامي، إلا أن تركوا الديار قاعاً صفصفاً، فقد ضعف العلم، وانحسرت التنمية، وظهرت طبقات طفيلية امتصفت خيرات المجتمع، وقننت الرشوة والظلم.. وقبل كل هذا فقدت الأمة أثمن ما تملك: هويتها وانتماءها.

ما أكثر جرأة هؤلاء الذين ملؤوا الدنيا جعجعة بالشعارات الوطنية، هؤلاء الجاحدون لثقافتهم، المتنكرون لأمتهم، فإن علمانيي أوروبا لم يتنكروا لماضيهم التاريخي كما فعل هؤلاء، ولم يخجلوا من انتمائهم الحضاري السابق كما يخجل هؤلاء، ولقد أعلن أخيراً عن فوز الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة وخاصة الجناح المحافظ المتدين، والذي يقود هذا التيار أستاذ جامعي تذاع محاضراته ذات الطابع المتدين في جميع الكليات، ولم نسمع أن هناك من يقيم الدنيا ولا يقعدها، ويدعو بالويل والثبور لانتصار هذا الجناح أو لانتصار النصرانية (السياسية)، فلا أدري أي صنف من البشر علمانيونا هؤلاء؟!!

إن هذه الأرض لله، والله لا يحب الفساد والظلم: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] والمسلم مأمور بالعدل والإنصاف والرحمة للخلق، وقد قام بمهمة الحكم وسياسة الناس لما فيه مصلحتهم في معاشهم ومعادهم سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ، وقام بها بعده أفضل الناس بعد الأنبياء أمثال أبي بكر وعمر، ولم يستنكفوا عنها، ولم يزهدوا فيها، ولم يفصلوا بين الدين والحياة، وبين الدين والسياسة، وامتلأت الأرض عدلاً ورحمة وعمراناً.

وإذا جادل هؤلاء بما يقع من أخطاء في جهات إسلامية، فما وقع منهم أضعاف هذا، ويبقى المسلمون أكثر رحمة وعدلاً وهم المستقلون عن الارتباط بأعداء الأمة.

ولكن حمزة لا بواكي له

إن الظلم الواقع على المسلمين في كثير من بقاع العالم لا نظير له؛ فهذا المجتمع الدولي الظالم الكنود قد تحالف حلف الشيطان ضد كل حق وفضيلة، وضد كل من يريد عبادة الله وحده، وترك ما دونه من الأصنام، ويريد هذا الحلف الشيطاني جرّ البشرية إلى مهاوٍ سحيقة من الضلال والفسق، ومن يقول له: «لا»، فهذه جريمة العصر.

إن ما يجري في البوسنة مثال صارخ على النفاق الدولي وتظاهر بالإنسانية، وهو يخفي مُرَّ العذاب بسكوته عما يقع من جرائم بحق المسلمين، وهذا واضح يعرفه كل إنسان، بل ويتأمل له أناس من غير المسلمين الذين عندهم بقية من ضمير أو حب للحق. ولكن الذي نريد الوصول إليه هو: أين علماء المسلمين؟! وأين دورهم في التخفيف عن إخوانهم؟ وأخص بالذكر العلماء الذين لهم مكانة متميزة، لماذا لا يمارسون الضغوط على هذه الحكومات كي تقوم بعمل ما؟! فالغرب لا يفهم إلا لغة القوة، ولو كانت قوة معنوية، ولكن عندما لا يرى شيئاً ولا يحس بأي معارضة لما يفعل، فسوف لا يرى إلا مصالحه القريبة والبعيدة.

لقد تدخل بابا النصارى مباشرة وبقوة في مسألة كرواتيا وسلوڤينيا؛ يقول «هنجتون» صاحب مقال «صراع الحضارات»[1]: «وكنتيجة لإصرار البابا على تأمين دعم قوي للبلدين الكاثوليكيين، اعترف الفاتيكان بكل من سلوڤينيا وكرواتيا حتى قبل المجموعة الأوروبية، وحذت الولايات المتحدة حذو أوروبا، وهكذا تجمع

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة (Foreign Affairs) صيف ١٩٩٢م، وقد أحدث ضجة كبيرة، وترجم إلى العربية عدة مرات.

الممثلون الرئيسيون في الحضارة الغربية وراء إخوانهم في الدين».

هل بابا النصارى أحرص على رعاياه من حرص العلماء على إخوانهم في الدين؟! أليس من العجيب أن هذه النصرانية التي تقول في كتبها المحرفة: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» تتدخل في السياسة وتستجيب الدول لاقتراحات وضغوط البابا، وديننا الذي يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...﴾ [الأنعام: ١٦٥]، والذي يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ..﴾ [آل عمران: ١٠٤]، لا يتدخل علماؤه في شؤون إخوانهم؟ ومن العجيب أيضاً أن النصرانية المحرفة تقول في كتبها: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» ولكنك تجد رجالها من أشد الناس إيماناً بمبدأ القوة، وأنه هو الذي يحل المشاكل العالمية، وديننا الذي يقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] لا نجد من يدافع عنه ولا عن رعاياه!! أيكون عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مسؤولاً عن شاة إذا عثرت بشط الفرات ولا يكون العلماء مسؤولين عن دماء المسلمين؟! لا شك أنهم مسؤولون ويستطيعون فعل شيء يخفف الآلام.

إن الواجب يدعو علماء المسلمين أن يجتمعوا على كلمة يستطيعون بها رفع الظلم عن إخوانهم في البوسنة أو الهند أو كشمير، فهل نأمل بأن يكون هناك دور للأزهر وأمثاله هذه القلاع التي كانت حصناً لردع أعداء الدين؟! وهل نأمل بأن يأخذوا بنصيحة عمر حين قال: «يعجبني الرجل إذا سئِم خطةَ ضيمٍ أن يقول: «لا» بملء فيه».

* * *

المحتوى

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥	بين الشيوخ والشباب	٦٣
فقه الشافعي	٧	الصحبة القديمة	٦٥
هذه الشريعة عربية	٩	فوائد المحن	٦٧
بين القوة والضعف	١١	من سنن الأنبياء الأخذ بالأسباب	
قرار صائب ثم يأتي النصر	١٥	المادية	٦٩
بين الدفاع والأصالة	١٩	الملل من كواذب الأخلاق	٧١
خطأ الواحد . . وصواب الجماعة	٢٣	مأزق البعد الواحد	٧٣
ثم يأتي سبع عجاف	٢٥	الاستبصار عند الفتن	٧٥
التخصص . . .أو التشتت	٢٧	هندسة العلاقات الاجتماعية	٧٧
المسلم وأغلال البيئة	٢٩	أمراض القلوب	٧٩
الفقه العملي عند الإمام مالك	٣١	دعوة عامة	٨١
ولكن أصحابه لم يقوموا به	٣٣	الشجاعة المفقودة	٨٣
يا له من دين لو أن له رجالاً	٣٥	وضوح الأهداف	٨٥
المؤسسات القديمة	٣٧	إنه أمر الله	٨٧
الحد الأدنى	٣٩	حسداً من عند أنفسهم	٨٩
رجل الفطرة	٤١	من سنن الاجتماع والجماعات	٩١
لا تقولوا الباطل	٤٣	من لهذه المنابر؟	٩٣
أين دور العمل؟	٤٥	الحرص على الدعوة	٩٥
ظاهرة التعلق بالأشخاص	٤٧	أمراض القلوب (٢)	٩٧
الفرصة المتاحة	٤٩	من لهذه المنابر (٢)	٩٩
حديث في البناء	٥١	في النقد الذاتي	١٠١
ليعط كل ذي حق حقه	٥٣	حتى لا نخادع أنفسنا	١٠٣
ولولا رهطك لرجمناك	٥٥	عالم الاقتصاد	١٠٥
أيها الدعاة . . لا تفسدوا الأخوة	٥٧	عالم الاقتصاد (٢)	١٠٧
وحدة الصف ووحدة المنهج	٥٩	أزمتنا أخلاقية	١٠٩
بين يدي الدعوة	٦١	أزمتنا أخلاقية (٢)	١١١

مواعظ القرآن ١١٣
التجمعات الصغيرة ١١٥
ثقافة الكتاب ١١٧
في الهدم والبناء ١١٩
الهمة العالية ١٢١
درس من السيرة ١٢٣
الحزبية ١٢٥
﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ ١٢٧
الحلقة المفقودة ١٢٩
صحوة أم تجديد ؟ ١٣١
ظلم ذوي القربى ١٣٣
وتريدون أن يمكن لكم ١٣٥
الأعمال الجماعية ١٣٧
أصحاب العقل المعيشي ١٣٩
طبيعة الإسلام ١٤١
درس من السيرة ١٤٣
الهروب إلى الأمام ١٤٥
من للمشاريع العلمية والدعوية؟ ١٤٧
مزالق الطريق (١) ١٤٩
مزالق الطريق (٢) ١٥١
شبكة العلاقات الأخوية ١٥٣
كونوا شامة في الناس ١٥٥
أنماط من التفكر ١٥٧
أو هو خير منه ١٥٩
نشأة أخرى ١٦١
نشأة أخرى ١٦٣
سددوا وقاربوا ١٦٥
كذلك لنثبت به فؤادك ١٦٧
الفرج بعد الشدة ١٦٩
بين المداراة والمداهنة ١٧١
منهج الاعتدال ١٧٣
أهل مكة أدرى بشعابها ١٧٥
أنماط التفكير (٢) ١٧٧
وإخوانهم يمدونهم في الغي ١٧٩
ولكن حمزة لا بواكي له ١٨١